طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــــدد 95

01 تشرين أول 2024

نحو مشروع للنّهوض القومي

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 95
01 تشرين أول 2024

محتويات العدد 95 من مجلة طلقة تنوير:

- افتتاحية العدد: ظاهرة السيد حسن نصرالله في حياته واستشهاده.....2
- العرب والترك والفرس وجدلية الاتحاد والتضاد: رداً على كمال خلف الطويل/ بشار شخاترة.....5
- الإمبريالية الأمريكية ومناهضتها: إفريقيا جنوب الصحراء أنموذجاً / إبراهيم حرشاوي.....9
- اتفاق غزة أريحا ـ سياسة التصفية والاستسلام (1993) / ناجي علوش.....16
- الإبادة الثقافية في غزة / فارس سعادة.....24
- كلمات مشرقية عامية مقارنة بأخرى بربرية / سعيد بن عبدالله الدارودي.....29
- العروبة والمسيحية والعرب المسيحيون: عصر النهضة (جـ 3) / إبراهيم علوش.....35
- الصفحة الثقافية: الفيلم الهندي "حياة الماعز" / طالب جميل.....41
- قصيدة العدد: السيمفونية الجنوبية الخامسة / نزار قباني.....45
- رسوم العدد: وما قتلوه... ولكن شُبه لهم.....52

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 95
01 تشرين أول 2024

افتتاحية العدد: ظاهرة السيد حسن نصرالله في حياته واستشهاده

رحل عنا سماحة السيد حسن نصرالله نتيجة غارات صهيونية عنيفة على المقر المركزي لحزب الله في حارة حريك، في الضاحية الجنوبية لبيروت، في 27 أيلول 2024. في اليوم التالي، أعلن حزب الله رسمياً عن ارتقائه وارتقاء القائد الشهيد علي الكركي (أبو الفضل)، الذي كان إلى جوار الأمين العام عند استهدافه، ليلتحقا بكوكبة من القادة الشهداء الذين جاد بهم الحزب على طريق القدس بعد 7 تشرين الأول / أوكتوبر.

يبرز من أولئك القادة الشهداء وسام حسن الطويل (الحاج جواد)، الذي جرت عملية اغتياله في 2024/1/8، وسامي طالب عبدالله (الحاج أبو طالب)، الذي جرت عملية اغتياله في 2024/6/11، ومحمد ناصر (الحاج أبو نعمة)، الذي اغتيل في 2024/7/3، والسيد فؤاد شكر (الحاج محسن)، الذي اغتيل في حارة حريك في 2024/7/30، وإبراهيم عقيل (الحاج عبد القادر)، الذي اغتيل في الضاحية الجنوبية لبيروت في 2024/9/20.

كما قدم الحزب، ضمن معركة جبهة إسناد غزة، التي أشعلها منذ 2023/10/8، مئات الشهداء من بين مقاتليه وكوادره على طريق القدس، وكان عدد من قياديه الكبار المذكورين أعلاه قد استهدفوا في سياق حركتهم في الميدان. ولم يتأخر كثيراً الأمين العام للحزب السيد حسن نصرالله ولا القائد علي الكركي عن الانضمام إلى تلك الكوكبة.

وكان العدو الصهيوني قد حاول اغتيال الكركي مرتين منذ طوفان الأقصى، مرة في شهر شباط الفائت، وأخرى قبل الغارة على المقر المركزي للحزب بأيام فقط، لينجح في المحاولة الثالثة بعد إلقاء أطنانٍ من المتفجرات على مجمع المباني الذي يقبع مقر الحزب تحته.

النقطة الأولى هنا أن هذا الحزب قدم مقاتليه وكوادره وقياداته العليا من أجل فلسطين وقضية الصراع مع العدو الصهيوني، فهم شهداء فلسطين والأمة العربية وإيران والعالم الإسلامي برمته وشعوب الأرض، كما هم شهداء حزبهم وبيئته الحاضنة وشهداء لبنان كله. وبصفتهم تلك، فإن تبنيهم هو حق وواجب كل فلسطيني وعربي ومسلم وإنسان حر في هذا العالم، لا حزب الله فحسب، لأنهم مضوا على درب فلسطين، أقدس قضية على هذه الأرض، ولأن من حقهم علينا أن نفيهم حقهم كما قدموا أرواحهم دفاعاً عن حقنا الوطني والقومي والإسلامي والإنساني.

النقطة الثانية هي أن هذا الحزب هو حزبٌ ميدانيٌ مقاتل، إلى جانب كونه حزباً عقائدياً وكتلة سياسية منظمة ومشروعاً مناهضاً للهيمنة الأمريكية والاحتلال الصهيوني. وبصفته حزباً ميدانياً مقاتلاً، فإن قادته الكبار لم يعفوا أنفسهم من مسؤولية الانخراط في الميدان بأنفسهم في أصعب الظروف وأقساها، ومن المعروف أن السيد حسن نصرالله بدأ حياته مقاتلاً ميدانياً في مواجهة الغزو الصهيوني للبنان عام 1982. وإن حزباً يتقدم قادته الصفوف ليجودوا بدمائهم وأرواحهم من أجل القضية التي التزموا بها، هو حزبٌ منتصرٌ لا محالة لأنه مدرسة ومنهج ومصدر إلهام ومصنعٌ للطاقة النضالية والجهادية التي تشحن الآخرين بالشجاعة والصبر، لا مجموعة أشخاص فحسب، ولو كانوا رموزاً كباراً.

النقطة الثالثة هنا أن سلسلة الاغتيالات التي تعرض لها كبار قادة حزب الله، وصولاً إلى أمينه العام، في خضم إدارتهم لمعركة كبرى وشرسة ضد طرف أمريكي-صهيوني واحد، يجر خلفه بعض التبع من المحسوبين زوراً على العروبة وهي منهم براء، ما كانت ستكون ممكنة، أولاً، لولا أن الغرب الجماعي والحركة الصهيونية وكل من يدور في فلكهما حشدوا كل قدراتهم من أقمارٍ صناعيةٍ وإمكاناتٍ إلكترونيةٍ وشبكاتٍ أمنيةٍ ووسائل تجسس وتنصت وتصوير لرصد البنية العسكرية والتنظيمية لحزب الله.

وما كانت ستكون ممكنة، ثانياً، لولا أن قياديي حزب الله أصروا على متابعة الحركة والعمل والمتابعة والإدارة بدلاً من أن يتواروا خلف السماء السابعة في حالة من الشلل.

وما كانت ستكون مركزة إلى هذه الدرجة، ثالثاً، لو أن الطرف الأمريكي-الصهيوني وجد نفسه مضطراً لمجابهة عدة ساحات مشتعلة في الوطن العربي والعالم الإسلامي، بحيث تتوزع موارده الأمنية عليها، بدلاً من تركيزها في إطارٍ أضيق، حمل فيه حزب الله، ضمن إطار جبهات الإسناد، العبء الأكبر، من دون التقليل أبداً من أهمية أيٍ من جبهات الإسناد ومن مساهمتها، وكان يفترض أن يكون كل قُطر عربي جبهة إسناد أخرى مشتعلة.

باختصار إذاً، لا نقول ما كانوا سيرتقون لو أنهم كانوا أكثر حذراً، بل ارتقى قادة حزب الله في خضم معركة كبيرة وهم يقاتلون، ارتقوا كباراً وهم رافعون لراية فلسطين، ارتقوا عظماء دفاعاً عن غزة، وارتقوا وهم ثابتون على المبدأ، واستمروا ثابتين صابرين بعدما رأوا إخوانهم يرتقون الواحد تلو الآخر من قبلهم، فلم يتزعزعوا ولم يترددوا ولم يساوموا على جبهة الإسناد.

لذلك، فإن من حقهم علينا أن نحذوا حذوهم وأن نتعلم منهم الصبر والثبات في الأزمات، وأن لا نتزعزع أو تهزنا النوائب بالرغم من عظم المصاب وكثرة الجراح، وأن نبقي عيوننا على الهدف الذي ضحوا بأعمارهم من أجله، وإن هذا هو ما كانوا سيوصوننا به، كما يشهد خطابهم وسيرتهم وصبرهم وجهادهم واستشهادهم، لأن التمرغ في وحول الإحباط والتشكك هو بالضبط ما يريده العدو الذي اغتالهم، فإن وقعنا في شراك الحرب النفسية وفقدنا البوصلة نكون قد خناهم وتنكرنا لكل ما كانوا يمثلونه.

أما بعد، فإن السيد حسن نصرالله، من بين أولئك القادة الكبار، برز في حياته كأحد أكثر الظواهر القيادية تميزاً وجاذبية في تاريخ العرب والمسلمين، وها هو يطرز اسمه في استشهاده كأحد أعظم القادة الذين قرنوا القول بالعمل، والكلمة بالدماء. وإن في سيرة سماحة السيد ما يمكن أن يقال فيه الكثير الكثير، فقد كان معلماً وأباً ومرشداً، وكان صلباً كصخرة في المبادئ وواسع الصدر في التعامل مع الاختلاف، فلم يقتصر مريدوه ومحبوه على أعضاء حزب الله وأنصاره، أو على طائفة بعينها

أو لبنان وحده، ولا على بعض أصحاب التوجه الإسلامي فحسب، بل امتدوا عبر الطوائف في لبنان، وعبر حدود سايكس-بيكو المصطنعة، وعبر الأيديولوجيات، وبين المتدينين وغير المتدينين، وعبر مستويات الوعي المتفاوتة، في رصيدٍ راكمه على مدى أكثر من ثلاثة عقود.

حسن نصرالله أحبه من أحبه لأنه هو، وهم بالملايين، وكان لإشراقته على شاشة التلفاز تأثيرٌ سحريٌ مهدئٌ أو محركٌ. كان معلم التواصل الجماهيري الذي منحه الله نوراً لا يصدر إلا من أعماق الروح، وكان بوصلة تهدي، وناراً تصلي، وجيشاً إعلامياً من رجلٍ واحد يقارع ألويةً إعلاميةً كاملة رصدت لها مليارات الدولارات، وكان بشير الانتصارات ومستوعب الصدمات. كان أبو هادي بسيط الكلمة عميق اللجة سهلاً ممتنعاً، وكان لا يُمِل إذا أطال، لا تشبع من مزيده، جاداً رصيناً لكنْ خفيف الظل، لا يترفع على الناس، ثقيلاً على الأعداء في القول والعمل، وفي المفاصل الكبرى كنت تبحث عن رايته ووجهه الجميل وشروق الأمل.

لأنه هو، لم يقبل بأن يعلب نفسه في وعاءٍ طائفيٍ لبناني يظل أصغر من أن يتسع لفضائه الواسع، بل أصبح بالمحبة زعيماً وطنياً لبنانياً، وعربياً، وأنموذجاً عالياً للعلماء المجاهدين والمسلمين المستنيرين. كما أنه أصبح بالقدوة الحسنة وحسن الإدارة مثالاً أعلى للقائد المقاوم، حكيماً، وإن الله يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيرا، وكان سماحته سياسياً بارعاً استطاع أن يمخر عباب تناقضات الساحة اللبنانية، وحتى الشيعية في لبنان، من دون أن يتورط في مخالبها، ليضع كل ثقله وثقل الحزب في ميدان المقاومة متظللاً بالتحالفات التي أقامها لبنانياً وعربياً.

كان نصرالله قائداً فذاً تمكن الحزب في ظل قيادته من مراكمة إنجازاتٍ وانتصارات عز نظيرها، من تحرير جنوب لبنان عام 2000 إلى التصدي للعدوان الصهيوني والانتصار عليه، باعتراف الصهاينة أنفسهم، عام 2006، إلى التصدي لمحاولة صهينة لبنان وأمركته بعد اغتيال الرئيس رفيق الحريري، إلى المشاركة الفعالة في التصدي للغزو الصهيو-تكفيري بعد ما يسمى "الربيع العربي"، إلى لعب دورٍ رئيسي في دعم ساحات المقاومة في العراق واليمن، وفلسطين من دون أدنى شك، إلى تطوير القوى العسكرية إلى مستوى جعلت من حزب الله مكوناً مهماً جداً في مواجهة الطرف الأمريكي-الصهيوني وأدواته في الإقليم.

والآن، نشعر بالفقد بحجم ما كان السيد حسن يملأ كل ذلك الحيز، ويعتصرنا الألم بمقدار ما التحم أبو هادي في الروح. لم يهوِ نجمه بارتقائه وإنما علا وعلا في سماء الخلود، ولم يتركنا وحدنا وإنما حفر سيرةً كالمصباح تضيء الدروب المعتمة، ولم يمضِ بلا عودة، لأن وجهه سيطل يوم النصر في القدس وفي عكا وفي حيفا وبئر السبع والناصرة، وإن في شهادته لآية، فإن كان أحسننا قد اختارها وتمناها، وإن كان نصر الله لا يأتي إلا بها، فإننا على درب حسن نصرالله سائرون نحو إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

مباركٌ ارتقاء الأمين، وارتقاء شهداء المقاومة أجمعين، من لبنان إلى غزة إلى الضفة الغربية إلى كل الميادين.

لائحة القومي العربي

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 95
01 تشرين أول 2024

العرب والترك والفرس وجدلية الاتحاد والتضاد: رداً على كمال خلف الطويل

بشار شخاترة

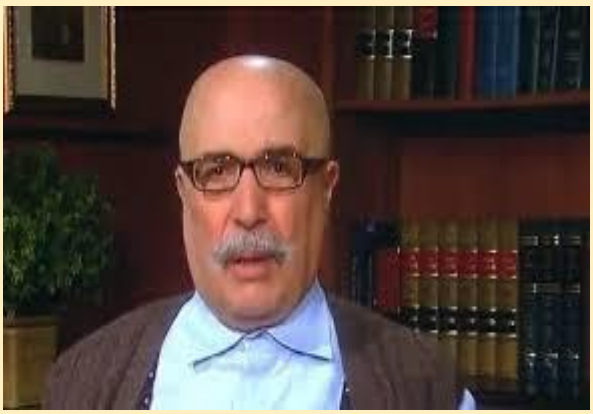

نشرت جريدة الأخبار اللبنانية للدكتور كمال خلف الطويل مقالاً من جزأين بعنوان "كي تقوم للشرق قائمة (1) عرب وترك و(2) عرب وفرس"، قصد أن يؤسس لتحالف هذه القوميات الثلاث على قادة التكافؤ، كما وصفها، مارا بمحطات تاريخية عديدة قديمة وحديثة، قافزاً عن مفاصل هامة في التاريخ القريب والبعيد حتى يتسنى له تطويع النتائج على نحو ما رغب، هذا عدا أنه أتى باستنتاجات وسوقها في مقاله على أنها حقائق سنتعرض لبعض منها، مع التركيز على الصيغة التحالفية التي دار المقال حولها.

وحتى تستقيم السلعة التي يريد الكاتب تسويقها كان عليه أن يسير في مسار ناقد للعلاقة بين الأقوام الثلاثة: العرب والترك والفرس، مقسماً حصص المسؤولية التي تتحملها كل أمة، ليبرهن على موضوعيته وموضوعية طرحه، وكونه عربياً فإنه حمّل العرب العبء الأكبر في وزر هذه العلاقة مع الأتراك والفرس باعتبارهم من يغلقون الباب في وجه تحرر هذه المنطقة التي حصرها بين البحر المتوسط غرباً إلى بحر قزوين شرقاً، والتي سماها "الشرق" جرياً على الأدبيات الغربية، واللافت أنه لم يخصص شيئاً للعلاقة بين الترك والفرس في سياق مستقل، بما يؤيد ما نحن بصدده من أنه وضع الخطأ الأكبر في جهة العرب، باعتبار أنه لا مشكلة لدى الترك والفرس من التلاقي والتحالف لإخراج المنطقة، أو "الشرق"، من هيمنة القوى الدولية التي لا تتوقف عن التدخل وزعزعة هذه المنطقة.

من قبل أثار هذا الموضوع الكاتب اللبناني الراحل أنيس النقاش في كتابه (الكونفدرالية المشرقية... صراع الهويات والسياسات) الصادر عن دار بيسان للنشر والتوزيع في كانون أول من العام 2015، وقد تعرضنا في عدد طلقة تنوير رقم 71 https://www.freearabvoice.org/?p=6681 لهذا الموضوع نحيل إليه من يرغب. وقد هاجم النقاش في كتابه القومية العربية بشكل مباشر مقللاً منها لصالح "كونفدرالية مشرقية" بين بلاد الشام عموماً وإيران، ولكنه استثنى تركيا في حينها نظراً لتموضعها السياسي ضمن حلف الأطلسي ونظراً لدورها في الحرب السورية، لكنه لم يقفل الباب في وجهها متوقعاً لها أن تعود لتنضم إلى هذه الكونفدرالية.

أتى كمال خلف الطويل ليفتح الباب لعودة تركيا إلى الصيغة التي بدأها أنيس النقاش في إطار أو مسمى جديد سماه تحالف (عتف)، اختصاراً للحروف الأولى من عرب-ترك-فرس، مع أن الصيغة السياسية التي قدمها الطويل أخف من تلك التي قدمها النقاش، فهنا نتحدث عن تحالف وهناك عن صيغة كونفدرالية، لكن التدقيق في كلا الطرحين يبين أنهما وجهان لعملة واحدة لا فرق كبيراً بينهما.

يأتي ردنا في هذا المنبر العروبي ليس رفضاً للاتفاق والتفاهم، أو حتى التحالف، مع الجوار العربي، ولكن الصيغ التي يأتي بها هؤلاء الكتاب تشعرك وكأنك أمام حصان طروادة فكري، فلا شك أننا إن خيرنا بين التفاهم وبين الاحتراب أو التنافر مع الجوار العربي لاخترنا الاتفاق، وإن الرفض أو التحفظ منبعه ما يطرحه كمال خلف الطويل من مبادرات يوزع فيها الأرض العربية كيفا اتفق من أجل أن يتقبل التركي والإيراني صيغة التحالف التي يقترحها، فلا بأس من التنازل عن الإسكندرون

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 95
01 تشرين أول 2024

لتركيا وعربستان لإيران، فجميع هذه البلاد إسلامية وسكانها مسلمون، وأنه لا فرق بين من يحكمها من المسلمين طالما أنها ديار إسلام...

ذكرني هذا المنطق عندما أعلن نابليون إسلامه حينما حوصر في مصر، على قاعدة إذا أردت أن تخطب ود العرب أو تنال منهم مغنماً فسايرهم في عباداتهم وشعائرهم الدينية وكأنك ألقيت عليهم تميمة، وهذا منطق لا يليق بعربي أن يتبناه، ولا يليق بحليف توشك أو تريد أن تحالفه، وإلا تصبح العلاقة تبعية مقنعة بقناع التحالف فيها طرف قوي يقبل التنازلات التي يقدمها الحليف الآخر، وكأنما يريد استبدال تبعية بأخرى على قاعدة الدين، من باب أن نار الجوار المسلم أرحم من جنة الغرب، ونحن نقول إنه لا هذه ولا تلك.

ويفوت الكاتب الطويل أنه لنجاح مشروع الحلف الذي يبشر به لا بد له من حلفاء أقوياء، أو على الأقل حلفاء ضعفاء، بما فيهم إيران وتركيا، يريدون أن يتقووا ببعضهم، أما الصيغة التي يتزلف بها لإقامة التحالف فهي على حساب أمة دون غيرها هي الأمة العربية، فالتحالف يحتاج إلى أمة عربية قوية وعلى قاعدة المساواة وعلى قاعدة الاحترام المتبادل، هذا أسلم وأحصن للعلاقة والتحالف. أما الصيغة الزائفة التي أتى بها صاحب الطرح فلا تصلح إلا لنقل راية التبعية إلى تركيا وإيران، ويفوته أيضاً أن العلاقة التي طبعت هذه الأقوام يلقي عليها التاريخ والثقافة والدين والجغرافيا بظلال ثقيلة تتجاوز فكرة الاقتصاد والتعاون، فالتاريخ دائماً حاضر وكذلك الجغرافيا في نقد هذه العلاقة، فتلك العوامل لها الغلبة على الاقتصاد في تقدير العلاقة وما يبنى عليها من مواقف.

ابتدأ الكاتب جزأه الأول بالعلاقة بين العرب والترك، متعامياً عن الكوارث التي أحاقت بأمتنا العربية طيلة حكم الأتراك لبلادنا، ويستنكر الطويل مقولة الاحتلال التركي، فإذا لم يكن الأتراك محتلين فماذا عساهم أن يكونوا؟ إن الحديث في مصائب الأتراك التي أورثونا إياها يطول بما لا يتسع له مقال، لكنْ نكتفي بتخاذل الدولة السنية عن نصرة المسلمين الذين كانوا تحت حكمها، فبعد عدن وشواطئ الخليج العربي والجزائر ومصر التي احتلها الغرب تحت سمع وبصر الدولة العثمانية ولم تحرك ساكناً، فأي خذلان كان هذا؟ ولكي لا يبدو أننا نتجنى عليها فإنها بالمقابل جيشت الجيوش وحشدت الجند لصد حملة إبراهيم باشا وتوسلت إلى ذلك بالتحالف مع ألد أعدائها مثل روسيا القيصرية، ناهيك عن فرنسا وحليفها التقليدي بريطانيا. ألم يكن ذلك إسلاماً حين سقطت أقطار العرب الواحد تلو الآخر، ولم تحرك السلطنة ساكناً، في حين أنها انتفضت دفاعاً عن كينونتها التركية جراء تقدم إبراهيم باشا في الشام؟ وبعد ذلك كله أتت الأحداث لتثبت أن اللبنات الأولى لتأسيس الكيان الصهيوني في فلسطين وضعت بعد إخراج إبراهيم باشا منها، وأن بداية الغزو الصهيوني المنظم لفلسطين جرى في ظل السلطان عبد الحميد الثاني.

تلك أحداث مضت تلاها أن ضحى الأتراك بالخلافة وأقاموا على أطلالها الجمهورية الأتاتوركية ولم يضحِ العرب بالخلافة كما أراد الكاتب تمريره، فدخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى مع ألمانيا كان على حساب العرب ومن لحمهم الحي ومن دماء أبنائهم وقوت أطفالهم. لقد احتملت بلاد الشام العبء الأكبر لمغامرات السلطة الحاكمة في تركيا، وبصرف النظر عمن كان في السلطة، فمن جمعية الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة، إلى ما سبقهم من الخلفاء العثمانيين إبان سيطرتهم على مقاليد الدولة قبل تسلل هذه الأحزاب حين كانت تتساقط البلاد العربية الواحدة تلو الأخرى من دون أن يحركوا ساكناً، فإن في انخراط الدولة في تلك الحرب في صراع بين الدولة الاستعمارية الأوروبية على المستعمرات ومناطق النفوذ، كان يمكن أن تكون فرصة لدولة الخلافة أن تجدد شبابها بوقوفها على الحياد، وذلك نظراً لانخراط الدول المعادية لها في تلك الحرب، ففعلياً الدولة العثمانية باعت العرب قبل أن يبيعوها، وطموحهم للاستقلال حق إنساني وقومي، ولا ننتظر من الكاتب أن يعطي الأمة درساً في التسامح والقفز عن ذلك الحق لصالح أفكار وتهويمات لا محل لها من الواقع.

يخلص الكاتب إلى اتهام الحركة القومية بعمالتها لفرنسا، وفي هذا قفزٌ عن منطق الأمور والحقائق، فإنه يجب التفريق ما بين الخديعة الكبرى التي مارستها فرنسا وبريطانيا من خلال الشريف حسين وما بين صدق تطلعات أحرار العرب في الاستقلال وإقامة دولتهم، فإذا كانت نظرة الحركة القومية تستلهم شيئاً من التجربة الأوروبية في إقامة دولة الأمة فإن ذلك لا يضيرها فقد سبقها إلى ذلك القوميون الأتراك الذين أعلنوا إنهاء الخلافة وإقامة الجمهورية القومية التركية، فلماذا يُعاب علينا ما يقبل لغيرنا، مع أن الحركة القومية العربية لم تكن مطلقاً في الصف الغربي، وهو ما يشهد به تاريخها عبر أكثر من قرن من الزمان.

وتركيا اليوم، وبعد مرور قرن على الطلاق الذي أعلنه أتاتورك مع الإسلام والجوار الإسلامي والعربي، لم يألُ من لحقه في الحكم جهداً إلا وأوغل في قطع تلك العرى، فحتى حروف الكتابة لم يبقوا عليها بل حولوها إلى الحرف اللاتيني، هذا ناهيك عن ازدراء العربية والعرب في عهد السلطنة، لكن الكاتب يرد على هذه الحجة بأن الشعب التركي لم يتأورب بل بقي نبضه إسلامياً وهي مقولة بالمناسبة إخوانية، ونرد عليه وعليهم نعم لم يتأورب لأن أوروبا لم تقبلهم ولكننا رأينا من هؤلاء الإسلاميين الذين أخرجتهم القواعد الإسلامية الشعبية ما لم نره من الأطلسيين في تركيا، فبركات الخليفة الجديد أردوغان واضحة، حتى من أصيب بالعمى والصمم والبلادة وفقدان الإحساس شعر ببركاته في سورية خلال عقد ونيف، وفعل جند الخلافة وحواريوها ما لم يفعله أشد الناس عداوةً لنا.

ما نريد أن نصل إليه أن تركيا الأطلسية والإسلامية على حد سواء لم تتجاوزا عقدة التاريخ والثأر من العرب أو عقدة الاستعلاء والتفوق، وهذا إن لم يعلمه الكاتب المحترم فليذهب إلى أي مدينة تركية ويصرح بعروبته فقط ليرى بأم العين لا ليسمع فقط. ولن نزيد في شأن تركيا كثيراً فإن هناك ما يقال مما يملأ مجلدات.

أما العلاقة الإيرانية العربية فإنها برغم حداثتها على مستوى إيران كدولة والعرب كدول قطرية فإنها إشكالية بامتياز، مع أنها في المرحلة التي سبقت قيام الدول القطرية في الوطن العربي لم تكن مباشرة وإنما طغت عليها الصراعات العثمانية الصفوية التي لم يكن العرب سوى ميدان معركة فيها من دون عداء مباشر بين عرب وفرس.

أما بعد تقسيم الوطن العربي وقيام الدول القطرية، وخصوصاً المشرقية منها، فقد مرت العلاقة بمرحلتين، الأولى مرحلة حكم الشاه وتحالفه مع الغرب وكانت إيران في حينها في الخندق المعادي للقومية العربية وللأمة العربية عموماً، وكان حلفاؤها من العرب هم من كانوا تبعاً لبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية في مواجهة المد الناصري البعثي، وحين انقلبت الحالة بانتصار الثورة الإسلامية تبدلت المواقف والمواقع والتموضع فمن كان حليفاً لإيران بالأمس أصبح عدوها اليوم والعكس صحيح.

لكن النقطة الداكنة في العلاقة التي اتسعت وطبعت العلاقة في اللاوعي العربي والإيراني عموماً نشأ عن الحرب العراقية-الإيرانية والتي لها ما لها وعليها ما عليها، وإن حاول الكاتب الموازنة في المسؤولية إلا أن المسألة في ظل هذا الظرف الراهن يغدو الخوض فيها مما يضر ولا ينفع، ويفتح باباً لمزيد من تعميق الفتن لا مصلحة لأحد به. فالكاتب الذي يتقدم

باقتراحاته لبناء التحالف نقول له إن هناك حالة من التحالف قائمة واقعياً، ومنذ أمدٍ بعيد، وهي بدون موارية تلك التي أسسها الراحل حافظ الأسد بنظرة موضوعية تتجاوز كمال خلف الطويل وتتجاوز أنيس النقاش ومن سبقهم أو من سيتلوهم، فهو الذي وضع سيناريو هذا التحالف الذي أينع محور المقاومة اليوم عندما كانت إيران لا زالت تتلمس طريقها.

نقول إن العلاقة التي يجب أن تؤسس على قاعدة التحالف بين العرب وإيران إن لم تكن مؤسسة على قاعدة عربية صلبة ستضر إيران يوماً ولن تنفعها، فإنه من مصلحة إيران أن نكون عرباً أقوياء، وذلك إن كنا نتفق على وحدة الهدف وهو إزاحة الكابوس الصهيوني الإمبريالي من المنطقة وخلق فضاء من التعاون المستقل بين أبناء هذه المنطقة، وبغير ذلك فإن إيران بقدر ما ستستفيد من تحالفاتها العربية إلا أن ضعف حلفائها العرب سيرتد عليها ويحملها عبئاً قد لا تقدر عليه وحدها. ولا أحسب أن أحداً لا يراه اليوم مما تفعله الرجعية العربية بالتحالف مع الولايات المتحدة والصهاينة، وهو ما اصطلح عليه بـ "الحلف الإبراهيمي"، فإذا كان هذا الحلف يمس وحدة الأمة العربية ويمس عقيدتها ووجودها فإنه لا يقل مساساً بإيران بل هو أساساً موجه ضد إيران، وبأيدٍ رسمية عربية. وهذا لم يكن ليتمدد أو يؤثر لو كان هناك حليفٌ عربيٌ قويٌ موحدٌ في مواجهة الإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية.

بناءً عليه، فإن ما ذهب إليه الكاتب من تسويق لمقولة التنازل عن الأراضي في عربستان أو الجزر الثلاث أو التقاسم في الخليج، الذي لم يعرف الكاتب بماذا سيصفه، يضر بالعلاقة التي يريدها هو أكثر مما ينفعها أو يدعمها. فالعلاقة إبان قوة سورية وقبل تعرضها للعدوان الذي أنهكها كانت مثمرة ومنتجة للحلف أكثر مما هي عليه اليوم، ولهذا نقول للكاتب المحترم إن الشرط الأول لبناء تحالف مع الجوار، إن كان يريد له أن يثمر استقلالاً، هو العمل على بناء قاعدة عربية قوية تبدأ بوحدة أهم دولتين عربيتين في المشرق: سورية والعراق. وهذا إن أراد كاتبنا الاقتراح فليتقدم به ويشجع إيران على دعم هذا المشروع بدلاً من مقولاته التي تضر ولا تنفع من التبادل للأراضي والمياه وما إلى ذلك، بما يذكرني بمشاريع التسويات العربية مع الكيان الصهيوني بمقولاتها المتعفنة مثل "الأرض مقابل السلام". فلا نريد لمقولة جديدة من نوع "الأرض مقابل التحالف" أن تولد، فهذا يستبطن حالة الضعف العربي بل ويذهب إلى الاستضعاف.

فإذا لم أكن قادراً على مجاراتك في قدراتك اليوم ونحن موحدون في الهدف فلا يبيح لك ما تقدمه زيادةً عني أن تستبيحني، وهذا عين ما يمكن فهمه من طروحات كهذه التي نحن بصددها، فإيران أغنى عن ذلك ويضرها هذا ولا ينفعها، ويعمق الشق المذهبي غير المبرر بين السنة والشيعة، وخطورة هذا الشق والاحتراب المذهبي أنه مادة سريعة الاشتعال، لهذا إن لم نستطع أن نطوع فكرة وحدة العقيدة الإسلامية مع إيران بدعوى المذهبية والتشيع، وهي دعوى من ينكرها غير عاقل - لأنها تم العمل عليها بشكل مقيت – ، فإننا يمكن أن نستثمر في مقولة الجوار القومي والاحترام المتبادل على قاعدة عرب وفرس بما يتجاوز التناحر المذهبي المعد سلفاً في غرف الإمبريالية. لهذا يُقتضى منا، ومن يريد أن يحالفنا، أو من يتقدم بمشاريع مقترحة، أن يعمل أو يدعم حقيقة قومية العرب وحقهم في قيام دولة الأمة لديهم، عندها لن يكون للمذهبية دورٌ يذكر.

بقي أن نقول لكاتبنا المحترم إن ما تعانيه المنطقة التي شملها بمقاليه نابعٌ أساساً من تمزق الأمة العربية بين دولٍ بعضها لا يرتقي أن يكون بلدية أو قائمقامية، وبعضها، إن لم يكن أكثرها، تابعٌ خانعٌ للولايات المتحدة الأمريكية وربط مصيره ومصير الشعب العربي بها. هذا الواقع سيتغير استراتيجياً بقيام دولة الوحدة العربية، لأنها وبالضرورة وبشكل قاطع ستكون دولة مجابهة للهيمنة الغربية، لأنها ودونما أدنى شك لن تقوم إلا بالمواجهة والصراع ضد القوى التي مزقتها وتعمل على استمرار حالة التشرذم القائمة فيها، فالمصلحة لدعاة التحالف هو دعم هذا التوجه لا البحث عن تحالفات لا ندري مع من. فإذا كان التحالف المسمى اليوم محور المقاومة نموذجاً فإنه غير كافٍ للبناء عليه، لأن المشروع الذي ينادي به الكاتب أكبر من إمكانيات إيران وحدها على حمله بالتحالف مع تنظيمات وقوى مقاومة محلية.

هذا المشروع الكبير، نعم، يحتاج حلفاً لكنه يحتاج دولاً إلى جوار إيران، وقطعاً ليست تركيا لأنها بعقيدتها القائمة لن تنحو نحو هذا المحور، فأقصى ما يتمناه المرء في تركيا من إسلام تكفل به الإخوان المسلمون الأتراك الأردوغانيون ولجموا أي بادرة لخروج تركيا من عباءة الغرب. فالمشروع الإخواني التركي الأردوغاني هو مشروع مضاد قطعاً للإسلام الذي ينبغي

أن يكون عليه إسلام تركيا أو إسلام أي مسلم يؤمن بما جاء في القرآن. فالإخوانية والأردوغانية في حقيقتها هي مشروع مضاد للإسلام استثمر فيه الغرب كثيراً، ولكنه غفل عن الإسلام الشيعي لأسباب مفهومة ومبررة، لهذا احتفظ الفكر الإسلامي السياسي الشيعي بحالة من النقاء جعلته بالإجمال أكثر بعداً عن الاختراق، مقابل الإسلام السني السياسي والذي تم اختراقه بالعديد من المشاريع المتصهينة ولا أقلها المشروع الإخواني المضاد للإسلام، وذلك لإبعاد الناس عن عقيدتهم وعن قوميتهم. وهنا حديثنا عن العرب فأصبح الإسلام مقابل العروبة، مع أنه مكملٌ لها منسجمٌ معها. ولم يصبح الإسلام مضاداً للرأسمالية أو الصهيونية كما يجب أن يكون، وهذا موجود في أدبيات الإخوان بشكل واضح أحياناً مع بعض التورية والتنميق أحياناً أخرى، لكنك تراه فاقعاً مبتذلاً حقوداً في الأدبيات السلفية الداعشية والتكفيرية.

إلى الكاتب كمال خلف الطويل، وإلى من يتبنى مثل هذه الطروحات: تعلم جيداً أن تركيا ليست في هذه الخانة من الاصطفاف، وتعلم أن المصطف الوحيد مع مشروع التحرر من الهيمنة في منطقتنا هي إيران بالتحالف مع سورية وحزب الله وحركة أنصار الله في اليمن والقوى العراقية، وبناء عليه، فإن هذه الطروحات في ظل الاشتباك القائم لا معنى لها ليس في هذا الظرف فقط وإنما في كل الظروف، لكنها في هذا الظرف الذي تخوض قوى الأمة العربية، ممثلة بقوى المقاومة الفلسطينية في غزة وفي لبنان بقيادة حزب الله وحركة أنصار الله وفي العراق وفي سورية أيضاً، يكتسب صبغة خاصة من عدم الجدوى والشك في نوايا هذا الطرح بما يخدم الدعاية الإبراهيمية المتصهينة ويضر بالمعركة القائمة. لهذا دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فنحن اليوم أولى بلحمة الصف والتجاوز عن التجاذب والتنافر خدمة للمعركة التي يخوضها المجاهدون، والذين لا ينتظرون منا على الأقل إلا أن ندافع عن بطولاتهم وكفاحهم في مواجهة آلة الإعلام التي لا تترك فرصة للنيل منهم وشيطنتهم، بدلاً من الخوض في جدلٍ ليس هذا أوانه ولا مكانه ولا مقامه. أما من منظور أيديولوجي، فإن أولوية القومي العربي يفترض أن توحيد الأمة العربية في كيان سياسي واحد لا تلميع الاحتلالات، سواءٌ كانت شرقية أم غربية، ولا تقديم صكوك تنازل عن الأرض العربية مقابل "التحالف معنا"!

الإمبريالية الأمريكية ومناهضتها: إفريقيا جنوب الصحراء أنموذجاً

إبراهيم حرشاوي

لا شك في أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت وما زالت، منذ ظهورها ككيان استعماري توسعي، منخرطة في استغلال القارة السمراء مثلها مثل جميع الدول الغربية العظمى، إلا أنّ الدور الأمريكي في إفريقيا جنوب الصحراء لم يأخذ حقه كالدور الأوروبي في المشهد الإعلامي. ويعود الدور الأمريكي في إفريقيا جنوب الصحراء إلى فترة استقدام طلائع العبيد من كيانات الغرب الإفريقي إلى مستعمرة جيمس تاون ومستعمرات أخرى من القرن السابع عشر إلى غاية سنة 1808 التي فُعِّل فيها قانون

"حظر استيراد العبيد".

على الرغم من ذلك، استمرت مجموعات وشبكات أمريكية منظمة في إدخالهم بطريقة غير شرعية، إذ يقدر المؤرخون أنه تم استيراد ما يصل إلى 50.000 منهم إلى الولايات المتحدة بعد سنة 1808. وتؤكد بعض الإحصاءات أن بين عامي 1527 و1867 نُقل حوالي 12,5 مليون إفريقي إلى الأمريكيتين وتحملوا المعاملة القاسية والمرض والخوف. ومن بين هؤلاء، نجا حوالي 10.7 مليون شخص، وذهب حوالي 40 بالمائة للعمل في مزارع قصب السكر في البرازيل. واشتغل آخرون في منطقة البحر الكاريبي، في حين انتهى الأمر بنحو 3.5 بالمئة منهم في أمريكا الشمالية البريطانية والولايات المتحدة، حيث وصل في المجمل ما يقرب 388000 إفريقي أحياء إلى أمريكا الشمالية، وجاء حوالي 140000 منهم إلى منطقة خليج تشيسابيك.

تأتي في هذا السياق أهمية ذكر "جمعية الاستعمار الأمريكية" التي تأسست في سنة 1816 على يد روبرت فينلي، الكاهن البروتستانتي بغرض دعم وتشجيع إعادة العبيد المحررين إلى إفريقيا على غرار تجربة "لجنة إغاثة الفقراء السود" البريطانية، وهي المنظمة الخيرية التي تأسست في لندن سنة 1786، والمعروفة بلعب دورٍ أساسيٍ في اقتراح تشكيل مستعمرة سيراليون. وكانت هذه التجارب جزءاً مما يعرف بـ"حركة العودة إلى إفريقيا" التي ظهرت في القرنين التاسع عشر والعشرين، لترويج فكرة عودة أحفاد العبيد إلى قارتهم الأصلية. وقد نشأت هذه الفكرة عند بعض الأمريكيين الأوروبيين في الولايات المتحدة وقد أيدها في القرن العشرين الناشط الجامايكي ماركوس غارفي، وأعضاء حركة الراستافارية، وغيرهم من الأمريكيين الأفارقة، لكن القليل منهم غادروا الولايات المتحدة فعلياً.

في حقبة "جمعية الاستعمار الأمريكية"، بدأت عملية إرسال العبيد الأحرار إلى "ساحل الفلفل" بغرب إفريقيا لإنشاء مستعمرة ليبيريا، التي ظهرت ككيان خارج نطاق الاستعمار الأوروبي. ويشير اسم دولة ليبريا إلى هذه الخلفية حيث أن التسمية مستمدة من كلمة "ليبرتي" التي تعني الحرية باللغة الإنجليزية، كما أن عاصمتها مونروفيا سُميت على الرئيس الأمريكي جيمس مونرو الداعم هو الآخر لفكرة عودة الأفرو- الأمريكيين إلى إفريقيا. ومن الطبيعي أن المجموعة التي استقرت في ليبيريا تحت إشراف "جمعية الاستعمار الأمريكي" كانوا ينتمون إلى الفئة التي استدخلت قيّم وعقلية "الحلم الأمريكي" ، إذ شهدت ليبيريا بين عام 1822 حتى اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية قدوم أكثر من 15000 أمريكي من أصل إفريقي، إلى جانب أزيد من 3000 من أفارقة جزر الكاريبي. وقد حملوا معهم ثقافتهم الأمريكية الخاصة بهم والتي ميّزتهم عن السكان الأصليين، وتمكنوا بدعم أمريكي من السيطرة على السكان المحليين عن طريق قمع سلسلة من التمردات الداخلية، وجلب التكنولوجيا الأمريكية لاستغلال المناطق الداخلية الغنية بالموارد.

أما على الصعيد الاقتصادي، فكانت هذه الفئة كبقية الفئات التي مكّنها الاستعمار الأوروبي بالمستعمرات الإفريقية، تقوم بلعب دور "الكمبرادور". فمثلاً، في سنة 1926 منحت الحكومة الليبرالية لشركة المطاط الأمريكية "فايرستون" رخصة إنشاء أكبر حقل للمطاط في مدينة هاربيل الليبيرية مقابل منح ليبيريا قرضاً خاصاً بقيمة 5 ملايين دولار. وكانت حقول فايرستون بمثابة شبكة من المعسكرات للعمل القسري تدار بمنطق "دولة داخل الدولة"، إذ بدأ المشروع بإبعاد قبائل "الباسا" من مناطقهم، وتوظيف عشرات الآلاف من الأطفال والنساء والرجال الليبيريين تحت إشراف "المديرين البيض" في حقول المطاط. وذكرت مصادر موثقة من تلك الحقبة أن طريقة عمل شركة فايرستون جعلت من العمل القسري لا مفر منه، الأمر الذي حوّل عمال الشركة إلى "عبيد".

مرحلة إنشاء سياسة أمريكية شاملة للقارة

بعيداً عن السياق الليبيري وفترة تجارة العبيد، سنجد أن العلاقات الأمريكية مع دول إفريقيا جنوب الصحراء كانت محدودة، بل شبه غائبة مع توغل الاستعمار الأوروبي وسيطرته الكاملة على القارة الإفريقية. وكان بالنسبة للولايات المتحدة أول تعامل باستراتيجية رسمية مع القارة في سنة 1957 خلال جولة نائب الرئيس الأمريكي نيكسون التي استمرت وقتها عشرين يوماً. وتتصل هذه الخطوة في وجه من وجوهها بالانقسامات المتزايدة آنذاك نتيجة الحرب الباردة، وقد أوصى الرئيس أيزنهاور بضرورة إنشاء مكتب منفصل لإفريقيا داخل وزارة الخارجية كإجراء عملي لصد المد الشيوعي والتحرري-الوطني الذي كان في عنفوانه.

تعتبر العلاقة الأمريكية-الإثيوبية الحالة الإستثنائية، إذ ترجع علاقتهما إلى بداية القرن العشرين، بحكم أنها أول دولة إفريقيا جنوب الصحراء ذات سيادة تنسج علاقات ديبلوماسية مع واشنطن قبل سياق الحرب الباردة وموجة الاستقلال. وتضمنت هذه العلاقات الرسمية منح إثيوبيا وضع دولة الأعلى أفضلية، وحافظت إثيوبيا على أهميتها في استراتيجية الإمبريالية الأمريكية بإفريقيا بعد الحرب العالمية مع توقيع اتفاقية المساعدة الدفاعية المبادلة، والتي بموجبها وافقت الولايات المتحدة على توفير المعدات العسكرية والدورات التدريبية، ناهيك عن إقامة محطة للاتصالات الأمريكية في أسمرة قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية. وفي خضم هذه التطورات زار نائب الرئيس الأمريكي نيكسون إثيوبيا في الخمسينيات القرن الماضي ووصفها بأنها "واحدة من أقوى حلفاء أمريكا وأكثرهم ثباتاً".

ويظهر مستوى الاختراق الأمريكي في القارة عبر القوة الناعمة التي توظفها لكسب القلوب والعقول في إثيوبيا، إذ كانت من أوائل الدول الإفريقية التي استقبلت "فيلق السلام" الأمريكي. وتسعى الولايات المتحدة من خلال "فيلق السلام" ترويج النموذج الليبرالي على مستويات عديدة كالتعليم والاقتصاد ونشر اللغة الإنجليزية، حيث تفيد تقارير هذه المنظمة أنه منذ عام 1962، شارك حوالي 2934 متطوعاً في إثيوبيا فقط. ومع ذلك، شهدت العلاقات الثنائية تراجعاً ملحوظاً على إثر الثورة الإثيوبية، وارتباط النظام الثوري الإثيوبي بالاتحاد السوفيتي. ورفضت الولايات المتحدة وقتذاك طلب إثيوبيا برفع المساعدات العسكرية لمواصلة القتال ضد الحركة الانفصالية الإريترية وضد الغزو الصومالي في سياق حرب أوغادين.

ولم تعد المياه إلى مجاريها حتى فترة ما بعد حرب الباردة التي عادت فيها إثيوبيا إلى دورها الإقليمي النافذ بدعم أمريكي واضح، خاصةً بعد انخراطها كشريك استراتيجي في الحرب العالمية على "الإرهاب". ويبقى الدعم الأمريكي لإثيوبيا، الذي يتسم بسياسة العصا والجزرة، من المؤشرات الواضحة على أنّ النظام في أديس أبابا لم يتخلص بعد من التبعية للولايات المتحدة بالرغم من انضمامه إلى مجموعة البركس والتعاطف الذي أبدته واشنطن مع جبهة تيغراي وفرضها عقوبات تجارية قاسية على حليفتها، إلا أنها في نفس الوقت منحت السنة الماضية "الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية" لإثيوبيا حوالي 757 مليون دولار وفقاً لمنشور على صفحة السفارة الأمريكية بأديس أبابا على الفيسبوك.

وبالإضافة إلى الحالة الإثيوبية سنجد دولاً إفريقية أخرى تربطها علاقات مميزة مع الولايات المتحدة، خاصة إذا أخذنا نسبة إعجاب بعض الشعوب الإفريقية بالنموذج الأمريكي كمعيار. فحَسَب استطلاع أجراه مركز بيو للأبحاث – وهو مركز أبحاث أمريكي- في سنة 2013، سنجد أن معظم الآراء إيجابية إزاء الولايات المتحدة في جميع أنحاء العالم، وبالأخص في إفريقيا. وفي الدول الإفريقية التي شملها الاستطلاع، أعرب متوسط 79 % عن رأي إيجابي تجاه الولايات المتحدة، بينما كان لدى 10% من الأفارقة وجهة نظر سلبية. إن النّظر إلى الولايات المتحدة كشريك للدول الإفريقية جنوب الصحراء يبدو أمراً شائعاً في استطلاع آخر لنفس المركز، حيث يتبنى جمهور كل من السنغال (84%) وكينيا (79%) وغانا (75%) وأوغندا (70%) ونيجيريا (60%) وجنوب إفريقيا (58%) هذا الطرح.

وإذا نظرنا إلى دول مثل السنغال وكينيا سنكتشف أن معظم مراحل تاريخيهما السياسي بعد الاستقلال كانت تعكس بدرجات مختلفة التبعية للغرب والشراكة مع الدول الرجعية. فالسنغال تميّزت تحالفاتها التقليدية مع أربعة شركاء رئيسيين: فرنسا والمملكة العربية السعودية والولايات المتحدة والمغرب. وقد جعل منها موقعها الاستراتيجي واستعدادها للتعامل مع سياسات واشنطن في المنطقة كياناً لا يستغنى عنه في العمليات العسكرية الأمريكية في إفريقيا. وتمتلك السنغال واحداً من أكبر الجيوش وأكثرهم تقدماً من الناحية الفنية في منطقة جنوب الصحراء الكبرى، مما رشحها بأن تكون مشاركتها مفصلية في ما يسمى إمبريالياً بِـ "عمليات حفظ السلام" بالقارة مثل تلك الموجودة حالياً في ليبيا أو جمهورية الكونغو الديمقراطية.

تطوّر الدور الوظيفي السنغال في عام 2016 عن طريق اتفاقية تعاون دفاعي مع الولايات المتحدة. بالإضافة إلى ذلك، انضمت السنغال كعضو في "شراكة مكافحة الإرهاب عبر الصحراء" (TSCTP) الأمريكية، التي تأسست عام 2021 تحت ذريعة التواجد المتزايد للتنظيمات الإرهابية في غرب إفريقيا.

الملفت في حالة السنغال أنّه بصرف النظر عن النظرة الإيجابية للجمهور السنغالي للولايات المتحدة في العقود الماضية، إلا أن هذا الإعجاب شهد انخفاضاً في السنوات الأخيرة، ولا سيما في ظل إدارة ترامب. وليس من المستبعد أن يكون هذا التراجع مرتبطاً بظهور حركات احتجاجية سنغالية جذرية ومعارضة للمنظومة الاستغلالية الغربية مثل الجبهة من أجل ثورة مناهضة للإمبريالية ومناصرة للوحدة الإفريقية في السنغال (FRAPP).

يظهر هذا التراجع كذلك في الخطاب الإصلاحي للحكومة السنغالية الجديدة بقيادة الرئيس بشيروفاي ورئيس وزرائه عثمان سونكو، إذ صرّح هذا الأخير في مناسبة جمعته مع السياسي الفرنسي اليساري جان لوك ميلينشون في شهر مايو/أيار المنصرم، "أريد أن أكرر رغبة السنغال في تقرير المصير، وهو ما يتعارض مع الوجود طويل الأمد للقواعد العسكرية الأجنبية في السنغال". كما دعا قادة السنغال الجدد إلى زيادة حق تقرير المصير في المجال الاقتصادي، وشككوا في الوضع الراهن للاتفاقيات مع أوروبا وللفرنك الإفريقي، وهي عملة ذات أصول استعمارية لا تزال احتياطياتها موجودة إلى حد كبير في فرنسا.

أما كينيا فتحالفت هي الأخرى خلال الحرب الباردة مع المعسكر الغربي واتسمت سياساتها بتعزيز العلاقات مع الولايات المتحدة خلال فترة حكم الرئيس دانييل أراب موي (1978-2002)، والتحقت كينيا ساعتها بِـ"فرقة العمل المشتركة للانتشار

السريع" التابعة للولايات المتحدة، مما فتح الباب على مصراعيه لبناء منشآت عسكرية أمريكية في البلاد. ومع المشاركة القوية لكينيا في الحرب الأمريكية ضد "الإرهاب"، اقترنت الولايات المتحدة بشدة دعمها الإقتصادي عبر "الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية" بشرط نجاح العمليات العسكرية وعمليات مكافحة "الإرهاب" التي تقوم بها القوات الكينية.

تعمّقت تبعية كينيا للإمبريالية الأمريكية خلال رئاسة جو بايدن بعد انخراطها في الحلف الدولي المناهض لروسيا المعروف بِـ "مجموعة الاتصال الدفاعية الأوكرانية"، وفي "تحالف حارس الازدهار" المناهض للعمليات التي تقوم بها المقاومة اليمنية دعماً للمقاومة الفلسطينية واللبنانية. ووصلت الحالة في شهر مايو/أيار المنصرم إلى إعلان خبر ترشيح كينيا كـ"حليف رئيسي من خارج حلف الناتو" على غرار الكثير من المحميات الأمريكية بالعالم الثالث.

وتبقى مستجدات التبعية مرتبطة بمخاوف أمريكية من نفوذ الدول الصاعدة، لا سيما بعدما انقلب المشهد السياسي في القارة رأساً على عقب بالتوجهات الجذرية لدول الساحل التي أصبحت مصممّة على إجراء قطيعة حقيقية مع الهيمنة الغربية. لذلك، أعلنت الإدارة الأمريكية عن استثمارات جديدة وعن خطة مفصلة لخفض عبء الديون المرتفعة على كينيا، كما أعلنت "مؤسسة تمويل التنمية الدولية الأمريكية" عن استثمارات جديدية بقيمة 250 مليون دولار. ومن ناحية أخرى، شهدت كينيا احتجاجات قبل شهرين على إثر مقترح الميزانية الجديد الذي يفرض ضرائب على السلع اليومية. ويعتبر الكثير من الشباب المشاركين في هذه الاحتجاجات أن السفارة الأمريكية تتحمل نصيباً كبيراً في صياغة مقترح الميزانية بعدما أشادت السفيرة الأمريكية ميج ويتمان بهذه الإجراءات، لكن غضب المحتجين لم يكن موجهاً ضد الحكومة الأمريكية فحسب، بل يتعرض صندوق النقد الدولي لانتقادات بسبب حثه الحكومة الكينية على المزيد من الإيرادات الحكومية مقابل التقليص من الخدمات العمومية. ويحاول الحزب الشيوعي الكيني بقيادة المناضل بوكر نغيسا أمولي تأطير الاحتجاجات التي تشهدها العاصمة الكينية نايروبي بخطاب مناهض للإمبريالية الأمريكية. ونقرأ في بيان نشره موقع الحزب الشيوعي الكيني حول هذا الموضوع ما يلي:

"إن صداقته الحميمة مع النظام الصهيوني الذي يمارس الإبادة الجماعية تزيد من تورط الرئيس روتو في الفظائع الدولية. زيادةً على ذلك، فإن تصنيف كينيا كحليف من خارج حلف الناتو سيضع بلادنا في مرمى نيران الصراعات العسكرية العالمية. في ظل حكم الرئيس الحالي، كانت خطوة إنشاء قاعدة عسكرية أمريكية في واجير غير قانونية ونعتبر توسيع القاعدة العسكرية البريطانية في نانيوكي دليلاً على الانهيار التام لسيادتنا. إن التسليم الكامل لجزيرة ماندا في لامو للعمليات العسكرية الأمريكية يسلط الضوء بشكل أكبر على دور روتو كأداة للمغامرات العسكرية الأمريكية."

وبعد السنغال وكينيا، يتوجب علينا إلقاء نظرة سريعة على دولة جنوب إفريقيا وتأثيرها في تحديد العلاقات الأمريكية-الإفريقية بصفتها أول دولة إفريقية تنضم إلى مجموعة البركس بالإضافة إلى كونها الدولة الممثلة للموروث النضالي ضد نظام الفصل العنصري. ولا يخفى على أحد أن جنوب إفريقيا، بالرغم من هذه الرمزية النضالية التي تتمتع بها، أصبحت أكبر شريك تجاري للولايات المتحدة في القارة الإفريقية. وبالرغم من هذه العلاقة التي تبدو مستقرة، تم تقديم مشروع قانون إلى الكونجرس الأمريكي يدعو إلى إجراء مراجعة كاملة للعلاقة الثنائية في أعقاب الحملة القانونية التي تقودها جنوب إفريقيا ضد الكيان الصهيوني. ومن المفترض أن يقوّض هذا القانون، الصادر من عضوين من الكونجرس، وهما جون جيمس "الجمهوري" وجارد موسكوفيتش "الديمقراطي"، مسعى جنوب إفريقيا للاستفادة من "قانون النمو والفرص في إفريقيا" المختصر باسم "أغوا" (AGOA)، إذ يسمح هذا القانون للدول الأعضاء بالوصول إلى السوق الأمريكية من دون رسوم جمركية للصادرات بهدف تعزيز شعبية سياسات الولايات المتحدة عند الشعوب الإفريقية. ولا يجانب المرء الحقيقة حين يقول إن قانون "أغوا" يتناغم حالياً مع مقاربة دولية معادية لتمدد "مبادرة الحزام والطريق الصينيةً"، علماً أن واشنطن وحلفاءها في مجموعة الدول الصناعية السبع أطلقوا قبل سنتين "مبادرة الشراكة العالمية في مجال الاستثمار والبنية التحتية" كهجمة مضادة للمبادرة الصينية.

شهدت العلاقات الثنائية بين جنوب إفريقيا والولايات المتحدة أزمة أخرى بعدما وجهت واشنطن أصابع الاتهام إلى جنوب إفريقيا مدعيةً أن هذه الأخيرة تشحن أسلحة إلى روسيا. وترى شاينا فورين، الباحثة الجنوب إفريقية في العلوم السياسية، أن توتر العلاقات بين بريتوريا وواشنطن "يعتمد على نظرة أمريكية تعتقد أن جنوب إفريقيا حسمت خياراتها بشأن التقارب مع روسيا سياسياً واقتصادياً وعسكرياً. وتضيف الباحثة أن جنوب إفريقيا ساهمت بشكل كبير في كسر العزلة الدبلوماسية التي حاولت الولايات المتحدة والدول الغربية فرضها على موسكو، وخصوصاً في العام الأول للحرب الروسية-الأوكرانية.

من منظور جيو-سياسي، نلاحظ أن هناك سياسة أمريكية ممنهجة لتطويق جنوب إفريقيا بعسكرة معظم الدول المجاورة لها، وهي دول معروفة بتشكيلها خلال فترة مناهضة الأبارتايد تحالف "دول الخط الأمامي" لمساندة المقاومة في المنطقة. وضمن هذا السياق الجغرافي والسياسي بنت الولايات المتحدة قاعدة ضخمة في بوتسوانا في أوائل التسعينيات، وحرّكت هذه القوات بين 2002-2003 لتهديد زيمبابوي المناهضة للأطماع الغربية، في حين تتهم حكومة زمبابوي حالياً الولايات المتحدة بعسكرة زامبيا بهدف نقل 'أفريكوم" من شتوتغارت الألمانية إلى زامبيا من دون إذن من المشرعين الزامبيين أو الجماعة الإنمائية للجنوب الإفريقي أو الاتحاد الإفريقي. أما في ليسوتو، فتوجد منصات تجسسية أمريكية على قمم الجبال التي تشكل تهديداً مباشراً للأمن القومي لجنوب إفريقيا.

التخلي عن "الدولرة" في إفريقيا

لم يتبخر مسعى القارة لتحقيق استقلال مالي بعد استشهاد معمر القذافي وتوقف مشروع الدينار الإفريقي الذي كان أطلقه، بل على العكس تماماً. ومن بين التطورات الملحوظة في هذا الصدد إطلاق آلية في سنة 2022 من طرف بنك التصدير والاستيراد الإفريقي، بدعم من الاتحاد الإفريقي والبنوك المركزية الإفريقية، تمكّن التجار داخل القارة من استخدام عملاتهم المحلية، وهو الأمر الذي سيبسط التبادل الاقتصادي بين الدول الإفريقية، وسيحفز التجارة البينية خارج نطاق الدولرة، كخطوة تتماشى مع الرغبة المتواجدة لدى بعض الدول الصاعدة في التخلي عن الدولار.

على مستوى دول القارة، أعلنت زامبيا هذه السنة أنها ستتخذ إجراءات ضد استخدام العملات الأجنبية. وأظهرت وثيقة نشرها البنك المركزي الزامبي أن الأشخاص الذين يستخدمون العملات الأجنبية في المعاملات المحلية، قد يواجهون عقوبات بالسجن تصل إلى 10 سنوات أو غرامات مالية. وتعتبر العملة المحلية "الكواشا" من بين العملات الأسوأ أداءً في العالم، مع انخفاض قيمتها على مدار الشهور الـ12 الماضية، بنسبة 28 في المئة. ومن بين العوامل التي أسهمت في تراجع قيمة هذه العملة، عملية إعادة هيكلة الديون الطويلة، والانخفاض في إنتاج النحاس العام الماضي، المصدر الرئيسي لعائدات التصدير في زامبيا، وأخيراً الجفاف الشديد الذي أدى إلى زيادة فاتورة الواردات. وقال نائب محافظ بنك زامبيا، فرانسيس شيبيمو، مؤكداً على ضرورة استعادة السيادة المالية لبلاده: "عندما يعمل الناس بشكل كبير بالدولار، فمن الواضح أن الأدوات التي لدينا فعلياً لتنفيذ تفويضنا تصبح ضعيفة".

وتشهد زيمبابوي المجاورة نفس التوجه، مع إعلان حكومتها مؤخراً على خطة للتخلي عن العملات الأجنبية لصالح العملة الرسمية "زيغ". ومن المعلوم أنّ في جميع أنحاء البلاد، لا يزال الدولار الأميركي مستخدماً على نطاق واسع، بدءاً من دفع الإيجار والرسوم المدرسية إلى شراء مستلزمات البقالة. وقد اختارت زيمبابوي الدولرة لمعرفة ما إذا كان اعتماد العملة الأمريكية يمكن أن يمنع التضخم المرتفع ويحقق الاستقرار في اقتصادها، وذلك بعد أن وصل معدل التضخم بالدولار الزيمبابوي إلى نحو 2.2 مليون% في يوليو/تموز 2008. وعلى غرار الكثير من الدول التي تبنت الدولار، لم تكن الدولرة تجربة سهلة بالنسبة لزيمبابوي، إذ رافقها عدد من المساوئ، ومن أبرزها أن جميع السياسات النقدية المتعلقة بالبلاد باتت تصمم من قبل الولايات المتحدة بدلاً من الحكومة المحلية، كما أن القرارات التي يتخذها بنك الاحتياطي الفدرالي لا تأخذ في

الحسبان مصالح زيمبابوي عند وضع السياسات المالي، ولذلك صرّح الرئيس الزيمبابوي، إيمرسون منانغاوا، في إحدى خطاباته إن الثقة في "زيغ" (العملة الوطنية الجديدة) هي مسألة "هويتنا الوطنية وكرامتنا."

الأفريكوم والتواجد العسكري الأمريكي في القارة

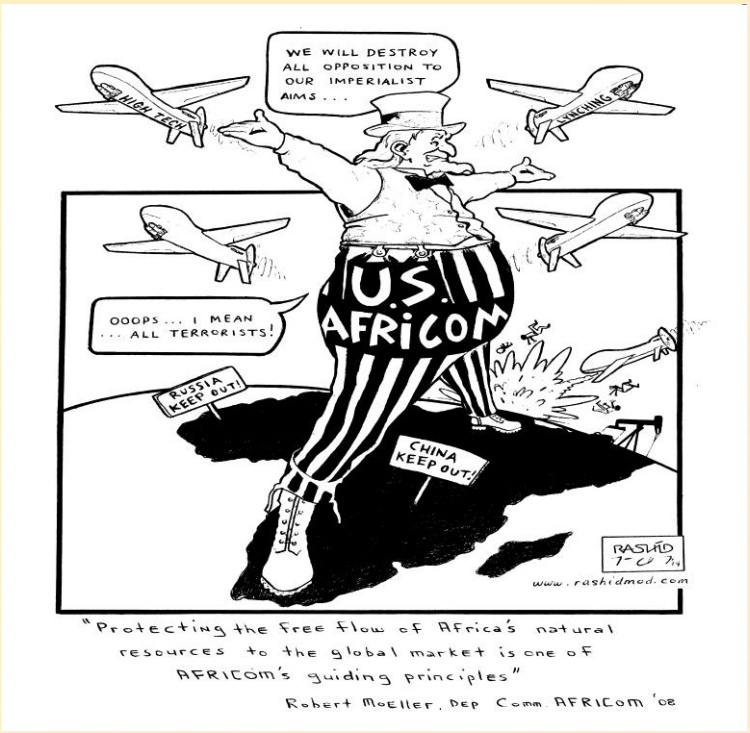

بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول 2001 أدخل البنتاغون بعض التعديلات على نشر قواته المسلحة في الخارج. فقامت بتوسيع فيما أسمته "نقاط الارتكاز" لتشمل أكبر عدد ممكن من دول العالم، تحقيقاً لاستراتيجيته الجديدة في الأمن القومي، كما عبر عنها الرئيس جورج دبليو بوش في العشرين من سبتمبر/أيلول 2002. والمقصود بنقاط الارتكاز هو أن يمتلك الجيش الأمريكي مواطئ قدم له، صغيرة لكنها فعالة، ومجهزة بإمكانيات التوسع لتتحول في وقت وجيز من مجرد نقطة للارتكاز إلى قاعدة أو ما يقاربها في إمكانياتها وقدراتها العسكرية والقتالية. وللولايات المتحدة في إفريقيا حالياً قواعد عسكرية في أوغندا وجيبوتي والسنغال وجمهورية ساوتومي وبرنسيب، أما نقاط الارتكاز فكثيرة ومنتشرة في العديد من بلدان القارة.

وفي سياق متصل بالاستراتيجية المذكورة، ينبغي تسليط الضوء على مشروع "الأفريكوم" أو "القيادة الإفريقية للقوات المسلحة الأمريكية" التي تعتبر إحدى القيادات العسكرية التي تقسّم الولايات المتحدة العالم بها إلى أقاليم عسكرية. وقد شُكلت الأفريكوم في عام 2007 في عهد إدارة جورج دبليو بوش، وتم توسيع حجمها في فترة الرئيس أوباما وكان الزعيم الليبي الراحل معمر القذافي أول رئيس دولة عربية وإفريقية يتخذ موقفاً مناهضاً لمخططات الولايات المتحدة بخصوص مشروع "الأفريكوم"، حيث حذر وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة كوندوليزا رايس في اللقاء التاريخي التي جمعهما سنة 2008، بأن الأفارقة سيعتبرون "الأفريكوم" استعماراً مباشراً لقارتهم. لهذا السبب بالذات، كانت أمريكا تتجنب في السابق قدر الإمكان استخدام قواتها في إفريقيا مباشرةً، واكتفت على العموم بشن الحروب بالوكالة، وخير مثال على ذلك هو حرب الكونغو الثانية (1998-2003) التي أدت إلى مقتل أكثر من 5 ملايين شخص. بدأت هذه الحرب عندما قرر رئيس الكونغو لوران كابيلا التفاوض بشأن عقود التعدين مطالباً باستخدام بعض العائدات لتطوير بلاده، فلجأت إدارة بيل كلينتون وقتذاك إلى تسليح وتوجيه جيوش أوغندا ورواندا لغزو الكونغو، بينما وسعت الدائرة الحرب لتشمل أنغولا بغرض دعم قوات الميلشياوي جوناس سافيمبي الموالي للغرب.

ومن الدارج في مثل هذه الحالة أن تنمو حركة مقاومة تضع التناقض مع النفوذ الأوروبي والأمريكي في قمة أولوياتها. وتتضح هذه الديناميكية للمقاومة في إعلان مالي والنيجر وبوركينا فاسوعن تشكيلهم إطاراً كونفدرالياً للتنسيق السياسي والعسكري والاقتصادي، في خطوة فاجأت الرأي العام الدولي. وتجدر الإشارة هنا أنّ الولايات المتحدة اضطرت إلى إعادة مركزة قواتها بعدما طلب منها المجلس العسكري في النيجر الانسحاب الكامل من أراضيها. ويبدو أن ساحل العاج ستصبح الوجهة البديلة لهذه القوات بعدما سمحت حكومة أبيدجان للولايات المتحدة بإنشاء قاعدة عسكرية على أراضيها، مع العلم

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 95
01 تشرين أول 2024

أن الرغبة الأمريكية تنبع كذلك من ضرورة مواجهة التمدد العسكري الروسي في إفريقيا، وملء الفراغ الأمني الذي تركته فرنسا في المنطقة، بعد انسحابها من مالي، وبوركينا فاسو، والنيجر. وتنوي فرنسا أن تقلص وجودها العسكري بشكل كبير في قواعدها في كل من الغابون، وتشاد والسنغال وساحل العاج نفسها. ويبقى التساؤل مطروحاً حول جدوى رهان ساحل العاج وبعض الدول المعروفة بتبعيتها للغرب على سياسة العسكرة الأمريكية في ظل الصحوة الشعبية الرافضة للهيمنة الغربية في العمق الإفريقي، وقابليتها التوسع على الصعيد القارة برمتها.

اتفاق غزة أريحا ـ سياسة التصفية والاستسلام

ناجي علوش

(الآداب 1 أيلول 1993)

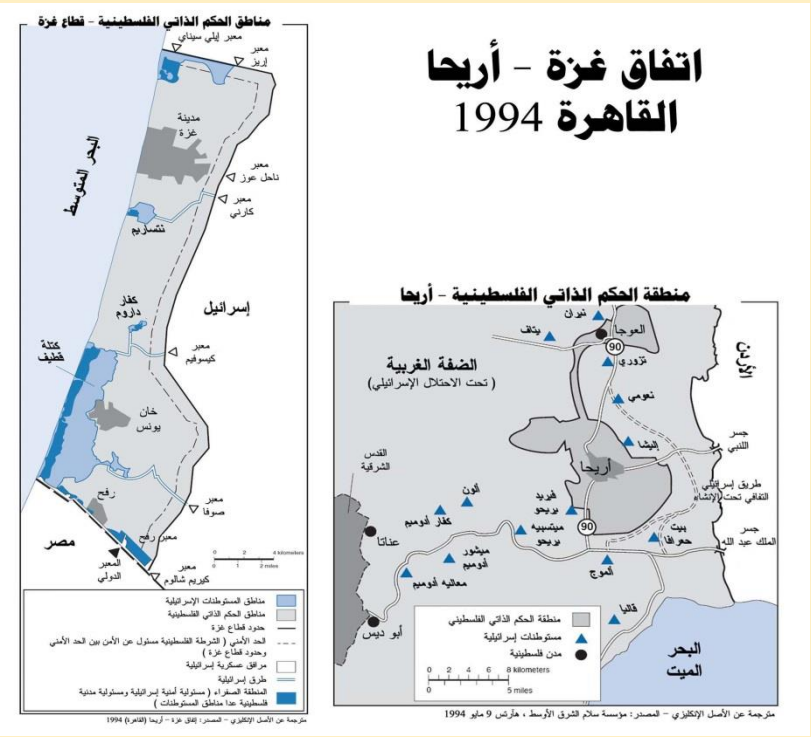

لا يعدو توقيع اتفاق غزة - أريحا أن يكون حصيلة للسياسات العربية عامة، والفلسطينية خاصة، منذ حرب حزيران عام1967. فعلى الصعيد العربي، هزم النظام العربي في حرب حزيران هزيمة منكرة. فالذين دخلوا الحرب، وعلى رأسهم نظام الرئيس جمال عبد الناصر، لم يخوضوا معركة، واكتشفوا أن قواتهم العسكرية "مجرد أوهام"، وأن حديث الحرب لا يرقى إلى مستوى الجعجعة. والذين لم يحاربوا شمتوا -على الأغلب- بالذين حاربوا، ووجدوا في الهزيمة فرصة لابتزاز الذين حاربوا، وللدفاع عن السياسات الاستسلامية الخاصة بالأنظمة التي كانت تدعو سراً إلى «السلام» مع العدو الصهيوني وتدعو علناً إلى ترتيب العلاقات مع حكومة الولايات المتحدة الأميركية وسائر الدول الإمبريالية.

لذلك، ورغم لاءات الخرطوم الثلاث التي خرج بها مؤتمر القمة العربي (تشرين ثاني 1967)، فقد صار

القرار 242 سياسة رسمية لمعظم الأنظمة العربية. وهذا القرار يدعو إلى التفاوض مع العدو الصهيوني، والصلح، والاعتراف المتبادل، وإقامة الحدود الآمنة وتصفية مشكلة اللاجئين.

لكن القرار 242 لم يُنْفَذ لا لأن الحكومات العربية رفضته كما اتهمت برفض القرارات الدولية السابقة بل لأسباب أخرى مختلفة أبرزها ما يلي:

1- لأن قيادة العدو الصهيوني كانت وما زالت، ضد تنفيذ أي قرار دولي يتعلق ببرامجها ومصالحها في المنطقة، ولأن قيادة العدو تؤيد فرض حلول مباشرة على الدول العربية وجماهيرها ضمن إطار العلاقات الثنائية المباشرة وبدون وسطاء دوليين؛ إلا إذا استهدف التدخل الدولي جرّ الضحايا إلى المصيدة الصهيونية؛

2- ولأن حكومة الولايات المتحدة كانت مع الموقف الصهيوني، وكانت ترفض أي دور سوفياتي في هذا الصراع، حتى لو كان من أجل فرض «سلام» لمصلحة العدو الصهيوني؛ ولأن الحكومتين الأميركية والصهيونية كانتا مع إجراء تغييرات بنيوية في الوطن العربي، قبل تطبيق أي تجربة «سلام» عربي - صهيوني. ذلك أنّ «اتفاق السلام» الذي يُكتب على الورق ليس اتفاق سلام؛ والسلام المطلوب يتطلب قيام أوضاع دولية وعربية، سياسية واجتماعية، تمنع نقض اتفاقات السلام المنشود.

ولهذا كان يجب أن يحدث تغيير سياسي واجتماعي في كل الأقطار العربية، وأن يحدث تغيير بنيوي في الاتحاد السوفياتي لكي يكون عقد اتفاق سلام عربي - صهيوني ممكناً.

ومنذ هزيمة حزيران 1967، كانت ثورة الثالث والعشرين من تموز تُحْتَضَر. ورغم انطلاق المقاومة الفلسطينية، بعد حزيران، انطلاقة شعبية واسعة، فإنّ الخلل تواصل. وجاءت وفاة الرئيس جمال عبد الناصر سنة 1970، وصعود السادات إلى السلطة، ليحققا شرطاً من شروط التوجه الأميركي - الصهيوني إلى «السلام».

وارتبط وصول السادات إلى السلطة في مصر بما يلي:

1- تدهور العلاقات المصرية - السوفياتية، وتحسن العلاقات المصرية الأميركية.

2- زيادة حدة الانقسام الرسمي في الوطن العربي، وغياب الدور القومي الناصري لمصلحة دور ساداتي انهزامي يوحد الأنظمة العربية الاستسلامية على أساس البرنامج الأميركي.

3- انطلاق دعوات الحل السياسي، ضمن إطار المنظور الأميركي - الصهيوني للصراع العربي الصهيوني.

وما لبثت حرب تشرين 1973 أن قامت لتفرض - رغم المبادرة العربية بالهجوم، ورغم تحسن الأداء العسكري العربي في الحرب - أمرين:

الأول: إدخال الجمهورية العربية السورية نطاق القرار 242 عبر القرار 338.

والثاني: تأكيد الهزيمة العسكرية العربية، وعدم جدوى الخيار العسكري النظامي، لمصلحة الحل السياسي من جهة والمقاومة الشعبية المسلّحة من جهة أخرى.

ولم تلبث حرب تشرين أن أنتجت كامب ديفيد واتفاقيته، لا لأن نتائج الحرب تقتضي ذلك فحسب، بل لأن قيادة السادات جاءت إلى السلطة انطلاقاً من الحرص على حل الصراع العربي - الصهيوني من خلال المفاوضات وبإشراف حكومة الولايات المتحدة الأميركية، وكانت حرب تشرين بالنسبة للرئيس السادات وسيلة إخراج لا غير.

وقد أخرجت اتفاقيتا كامب ديفيد مصر من الصراع مؤقتاً، وفتحتا للحل السياسي نهجاً واسعاً لم يعرفه من قبل، رغم استمرار المقاومة المسلّحة. وفي ظل اتفاقيتي كامب ديفيد نمت قوى استسلامية في الوطن العربي، وقامت وقائع جديدة تخدم المخطط الأميركي الصهيوني.

واكتملت الحلقات مع الهجوم الإمبريالي الدولي على العراق وفرض الحصار على ليبيا والسودان.

ومنذ 1967 وحتى الآن، وقوى الثورة العربية تتراجع، رغم المعارك التي خاضتها والتضحيات التي قدمتها؛ وقوى الاستسلام العربية تتمكن وتتعزّز حتى أصبحت صاحبة القرار المهيمن الآن.

وقوى الاستسلام هذه انطلقت من منطلقين:

الأول: قطري، ويقوم على أن السيادة القومية تشمل أرض القطر ولا تشمل أرض الوطن العربي كله. وبالتالي، فإن فلسطين قطر خارج إطار الدول العربية المعنية، واحتلاله لا يقع ضمن إطار المسؤولية القومية لأي قطر رسمياً. وهو مسؤولية قيادة م. ت. ف.، لأنّها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني.

وحتى حكومة الأردن التي ضمت الضفة الغربية إليها سنة 1950، فكت الارتباط مع الضفة، لمصلحة م . ت . ف . ، الممثل الشرعي الوحيد، وذلك للتنصل من مسؤولية الحل المطلوب.

الثاني: استسلامي، ويقوم على أساس الاعتراف بدولة "إسرائيل" وإيجاد حل يوافق عليه العدوّ لمشكلة الضفة الغربية وغزة.

ومن رحم هذين المنطلقين، ولد اتفاق غزة - أريحا. وقد لعبت سياسة كامب ديفيد المصرية دوراً رئيسياً في الدفع باتجاه هذا الاتفاق، وفي صياغة بنوده، وتنفيذ خطواته.

وعلى الصعيد الفلسطيني، انطلقت سنة 1965 مقاومة مسلحة محدودة، بقيادة حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح). وظلت كذلك حتى هزيمة حزيران سنة 1967. ولكنها، ما إن انتهى تموز سنة 1967، حتى أصبحت ظاهرة مقاومة شعبية تحظى بتأييد جماهير الشعب العربي في فلسطين وكل أرجاء الوطن.

إلا أن هذه المقاومة، منذ ولادتها، كانت تواجه إشكاليتين:

الأولى: إشكالية قيادتها التي لا تمتلك مواصفات قيادة قومية تاريخية ولا حتى مواصفات قيادة من أي مستوى، والثانية إشكالية الوضعين العربي والدولي.

فعلى صعيد القيادة، كانت المشكلة تكمن فيما يلي:

1- إن أبرز رموز هذه القيادة، وهم: محمد عبد الرؤوف القدوة (ياسر عرفات)، وخليل الوزير أبو جهاد، وصلاح خلف أبو أياد، لم يكونوا قد تربوا في المدرسة القومية المعادية للإمبريالية، ولا في المدرسة الديمقراطية المعادية للقمع والطغيان، ولا في المدرسة التحرّرية التقدمية المعادية للتخلّف. لذلك، فإنّهم لم يكونوا معادين للإمبريالية ولا للرجعية العربية. وكانوا يحملون أحقاداً على القومية العربية وقوى التحرر العربي، وينتهزون كلّ فرصة لتأكيد موقفهم هذا، والطعن بقوى الوحدة والتحرر والتقدم.

2- إنّ هؤلاء لم يكونوا مؤهلين سياسياً وتنظيمياً للعب دور قيادي. وهو ما كان يظهر، منذ البدء، وأثبتته الوقائع. ولذلك، فقد كانوا يعتمدون أساساً على أمرين:

أ - إغداق المال لشراء الذمم على نطاق واسع. وقد تيسر لهم المال الوافر، وهو ما أخذه المؤتمر الثاني لحركة فتح، سنة 1968، على محمد عبد الرؤوف القدوة (ياسر عرفات).

ب - استخدام كل وسائل الديماغوجيا السياسية.

إن هؤلاء لم يكونوا يتحلون بالقيم المناقبية اللازمة لقيادة حركة مقاومة. فهم يدّعون، وخاصة محمد عبد الرؤوف القدوة (ياسر عرفات) التتلمذ في مدرسة الإخوان المسلمين، وهم أبعد ما يكونون عن القيم التقليدية أو الدينية في كل الميادين. لذلك، فإنهم عمدوا إلى استقطاب «الزعران»، وإلى إفساد المناضلين، وحلّلوا في ممارستهم كل حرام.

وقد عمدنا إلى تبيان ذلك كله منذ 1970.

إن هذا النمط القيادي لم يكن نمط قيادة ثورة أو مقاومة. لذلك، فقد بنيت هياكل اختلط فيها الحابل بالنابل، وسادت فيها «الزعرنة» والفوضى علناً، وتسلّق الانتهازيون إلى أعلى المراتب ورقي العجزة والمرتزقة إلى مواقع القيادة. وما لبث السماسرة والقتلة والحشاشون أن أصبحوا أبرز القيادات وكان محمد عبد الرؤوف القدوة (ياسر عرفات) يُحكم قبضته كل يوم، ومنذ ١٩٦٨ خاصة، على قيادة «فتح» واللجنة التنفيذية للمنظمة، ويعامل أعضاءهما كأنهم موظفون في أحسن الأحوال، إن لم يكونوا خداماً في بيت أبيه.

وحين انطلقت الفصائل، بعد حرب حزيران، ضمت أناساً مختلفين، مثل قيادة حركة القوميين العرب وضباطاً سابقين، ومناضلين مجربين. ولكن كل هؤلاء عجزوا عن تحقيق التالي:

أولاً، بناء بديل تنظيمي وعسكري قادر على قيادة الشعب وتطوير المواجهة نوعياً مع العدو.

ثانياً، كشف ديماغوجيا قيادة عرفات، وتهميش دورها. وكانت قيادة عرفات، بدلاً من ذلك، تقزّم دور الفصائل الأخرى، وتسخف برامجها ونضالاتها، وتعمم القيم «الفتحاوية» غير النضالية في صفوفها.

وكان هنالك أكثر من عامل أسهم في تقوية خط عرفات:

1- حرص الأنظمة العربية الرجعية المرتبطة بالسياسة الأميركية على مساندة خط قيادة عرفات في وجه من أسموا بالمتطرفين واليساريين.

2- عجز الحركة القومية عن تحقيق وحدة أي قطرين وقصورها في ميدان الصراع العربي الصهيوني.

لذلك، ومنذ 1970، أخذ الواقع العربي يفرض توجهاته لمصلحة خط قيادة عرفات واستثمرت قيادة عرفات الواقع الجديد من أحداث أيلول إلى مشروع روجرز، ومن وفاة عبد الناصر إلى مجيء السادات للسلطة، لتبدأ تحولاً انقلابياً سريعاً، من خط التحرير إلى خط التسوية والتصفية.

وقد تمثل ذلك بالعمل على إجراء تحويلات في الخط السياسي وتحويلات في بنية «فتح» و «المنظمة».

وكان واضحاً من سلوك قيادة عرفات أنّها تستفيد من الظروف الصعبة، لتكشف خطأً خبأته. ولذلك فهي لم تعش أية معاناة كما عاشت قيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فيما بعد.

ولذلك بدأت قيادة عرفات حملة واسعة لـ"إعادة تثقيف" قواعد المقاومة بخط السادات.

ومنذ أوائل سنة 1973، كانت الجبهة الديمقراطية تطرح برنامجها المرحلي وحلّها السياسي رسمياً، تحت حماية قوات قيادة عرفات.

وقبل أن تبدأ حرب تشرين طلب السادات من قيادة عرفات أن تحدد موقفاً رسمياً من الحل السياسي الذي سيطرح عند وقف الحرب. وطرح عرفات ما طُلب منه على قيادة فتح.

وما لبثت حرب تشرين أن انفجرت، ليصبح حديث الحل السياسي فوق كل حديث، ولتبدأ قرارات المجالس الوطنية بهذا الشأن، من النقاط العشر في الدورة الثانية عشرة للمجلس الوطني سنة 1974.

ولكن ما كان يجري خارج إطار القرارات كان أكبر وأعظم، ذلك أن القرارات كانت تفتح ثغرات، لتغطية عمليات التحول الكبرى في صفوف فتح والفصائل والمنظمة وفي البرامج والممارسات.

ولما كان حلّ التصفية السياسية هو الخيار، فقد جرى العمل بسرعة لتحقيق ما يلي:

1- إجراء تغييرات بنيوية في المقاومة، تجعلها غير قادرة على غير الحل السياسي الاستسلامي. ولذلك دُمرت القوات المقاتلة بأساليب مختلفة، وضُربت قواعد التنظيم السياسي الشعبي لمصلحة الأجهزة المتخلفة المتعفنة، وشوهت النقابات والمنظمات الشعبية، وعبى المجلس الوطني بأسماء لا وظيفة لها غير التأييد، وجرى العمل على إخضاع الفصائل - عبر الابتزاز والشراء والضغط الدولي والمحاصرة السياسية والمالية - واستخدمت القوات المقاتلة لإخضاع المخيمات كما حدث في البص والبداوي ونهر البارد...الخ.

2- دفع الجماهير الفلسطينية إلى اليأس من خلال الزج بها في معارك تتحول إلى مذابح وإخضاع هذه الجماهير لسياسات قمعية عشوائية لم تعرف مثلها في كل عهود القمع- ممارسة دور سيطرة شمولية على كل الفلسطينيين، من خلال ممارسة السلطة الكاملة، حيث أمكن، ومن خلال الاتفاق مع الأنظمة في الوطن العربي والعالم على ربط مصير أي فلسطيني بمكاتب المنظمة وأجهزتها. وكان دور الأجهزة الأمنية الفلسطينية: الملاحقة، والمحاصرة، وتقديم المعلومات إلى الأجهزة الأمنية العربية والعالمية. وكان الهدف العام إخضاع الشعب الفلسطيني لسياسة التسوية العربية والعالمية.

وفي سبيل ذلك:

1- أخذت تتأكد الارتباطات والالتزامات مع الدول العربية المرتبطة بالسياسة الأميركية، منذ بداية 1971 وإن كانت واضحة من قبل.

2- أخذت تتعزز العلاقات مع الاتحاد السوفياتي، على أساس برنامج الحل السياسي، وخاصة منذ 1974.

3- أخذت تفتح أبواب العلاقات مع وكالة المخابرات المركزية الأميركية ومع الموساد، منذ بداية 1971، وأنشئت لجنة برئاسة محمود عباس "أبو مازن" لإعادة اليهود المهاجرين من البلاد العربية، كانت غطاءً للاتصالات الفلسطينية الصهيونية.

وما لم يكن ممكناً أن يباح به قبل 1970، بدأ ينكشف بعد 1970، ليبدأ الإعلان عنه منذ 1974، ثم أعلن تماماً مع كامب ديفيد، كما قال السيد هاني الحسن، في محاضرة له في لندن، نشرتها اليوم السابع ومنذ بدأت إجراءات كامب ديفيد، كانت قيادة عرفات تنتظر مرافقة السادات إلى القدس. وحين رفض الطرف الصهيوني استقبال الوفد الفلسطيني مع السادات قال محمود عباس (أبو مازن) لقد فاتكم القطار.

وحاولت قيادة عرفات، منذ ذلك الحين، أن تثبت أنها مستعدة لأن تكون الطرف المقبول، مهما كانت التنازلات، «حتى لا تخرج من المولد بلا حمص»، كما اعتاد عرفات أن يقول.

وواصلت قيادة عرفات جهودها، بعد كامب ديفيد. فخرجت من لبنان، ضمن إطار اتفاق عربي دولي. ودخلت بعد ذلك سنة 1983 معركة تصفية قوات «فتح» والتخلص من كل القوى المعارضة بعقد المجلس الوطني الفلسطيني في عمان.

وظلت تبعد المعارضين، وتمارس لعبة الشد والإرخاء، داخل المنظمة حتى أوصلت الجميع إلى خيار غزة - أريحا.

ولا يجوز أن ننسى أن هذه القيادة التي ادعت الوقوف إلى جانب العراق في حرب الخليج، وأسهمت في تشريد أربعمائة ألف فلسطيني كانوا يقيمون في الكويت، لم تتوان عن التقاط مشروع جورج بوش للسلام والانضمام إلى المشروع الأميركي فور إعلانه. ومن الجدير بالذكر أنها لم تلق أية معارضة أميركية.

ولم تمر سنتان على مشروع جورج بوش، حتى كان محمد عبد الرؤوف القدوة (ياسر عرفات) نجم حفل السلام الفلسطيني - الصهيوني في البيت الأبيض.

ولقد اتخذ ياسر عرفات قراره خارج إطار قيادة فتح واللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وبدون قرار من مجلسه الوطني الهزيل، وبمعزل عن دول الطوق العربية التي كان يهول على الشعب الفلسطيني والجماهير العربية بأن هذا الطرف منها أو ذاك كان قد وصل إلى اتفاق منفرد مع العدو الصهيوني.

وإذا كان ياسر عرفات قد طرح سياسة الكفاح المسلح باعتبارها سياسة توريط للأنظمة العربية مع انطلاقة المقاومة فإنّه الآن عمد إلى توقيع الاتفاق المنفرد حسب الشروط الصهيونية - الأميركية، ليورط الذين لم يورطوا بعد من الأنظمة العربية، وليثبت أن التوريط سياسته الرسمية، وأنه ورّط الشعب العربي الفلسطيني في الكثير من الورطات التي ستكون ثمارها أكبر وأبعد من أي تقدير.

والآن ماذا يمكن أن يعني الاتفاق، وماذا يمكن أن نتعلم منه؟

إن الاتفاق يعني ما يلي:

أولاً: إن قيادة عرفات أسقطت الميثاق نهائياً، وضربت كل الأسس التي قامت عليها «فتح» و «المنظمة»، وأنها حولت الذين ظلوا معها من «فتح» و«المنظمة» إلى شرطة تعمل في خدمة البرنامج الصهيوني الأميركي، وأن هدف هذه الشرطة قمع إرادة الشعب الفلسطيني المطالب بأرضه، وتصفية قضية «اللاجئين»، واستثمار الأرض الفلسطينية سوقاً للسلع الصهيونية، والأيدي العاملة الفلسطينية في سوق العمل الصهيوني، وبناء أدوات فلسطينية لاختراق الوطن العربي والأسواق العربية.

ثانياً: إن المطالبة بالأرض المحتلة سنة 1948 ستصبح جُرماً يعاقب عليه القانون، ومقاومة الاحتلال في الضفة الغربية وغزة ستكون ممنوعة. وسيقتصر عمل إدارة الحكم الذاتي في غزة وأريحا على التفاوض لحل المشاكل المعلقة، وعلى رأسها قضية القدس والمستوطنات واللاجئين. وسيخضع هذا التفاوض لبنود الاتفاق الحاسمة، ولمنطق المستسلمين الواضح ومن الملاحظ أن الاتفاق يغفل كل ما يتعلق بشؤون السيادة على الضفة الغربية وغزة، ويُسقط أية مطالبة بشأن الأراضي المحتلة سنة 1948، ويؤسس لتصفية الانتفاضة، ويضرب قوى المقاومة، بعد سنوات طويلة من النضال 1965-1994 وبعد تحقيق تراكمات مهمة وإنجازات كبرى.

ثالثاً: إن توقيع الاتفاق يتيح للعدو الصهيوني رفع كل أشكال الحصار التي كانت تواجهه دولياً، وإقامة علاقات سياسية واقتصادية مع كل الدول التي قاطعته وحاصرته، والمطالبة بإلغاء كل القرارات التي اتخذت بحقه دولياً، كما يجري الآن.

كما أن توقيع الاتفاق سيتيح للعدو إقامة علاقات مع دول عربية، مثل بعض أقطار المغرب والخليج، وحتى الأردن، واستثمار أسواق هذه الأقطار، وتوظيف المليارات التي ستخصص لمساعدة مشروع غزة أريحا، ضمن إطار حل أزمة الاقتصاد الصهيوني، وإطلاق طاقات عملاق اقتصادي صهيوني، يعزّز قدرة العملاق العسكري الصهيوني.

رابعاً: إن توقيع هذا الاتفاق الآن، وما يثار حوله من أحاديث السلام، وما يُنظم من احتفالات في كل مكان، سيغطي كل محاولات ابتزاز سورية ولبنان ومواصلة الحصار على العراق وليبيا والسودان وارتكاب المزيد من الجرائم في الصومال والبوسنة والهرسك. وقيادة عرفات، حين ترقص في احتفالات كلنتون ورابين، تسهم في اللعبة الأميركية - الصهيونية لتزيين سياسات الأميركي القبيح.

خامساً: إن توقيع هذا الاتفاق سيغطي تصفية القضية الفلسطينية، بتشريد «اللاجئين» الذين يسكنون المخيمات في غزة والضفة الغربية، وبتوطين الفلسطينيين الذين اضطروا للهجرة، خارج حدود فلسطين، وبضرب إرادة المقاومة، وتحويل الفلسطينيين إلى شعب من المناشدين والمتسولين... إن نجح المخطط في تحقيق ذلك، وإن لم تثبت إرادة المقاومة أنها الأقوى.

سادساً: إن هذا الاتفاق سيعرض الفلسطينيين داخل الأرض المحتلة وخارجها لعمليات إخضاع وتكييف. ذلك أن كل الذين أيدوا المقاومة، أو شاركوا فيها، سيدفعون الثمن في كل مكان أكثر مما دفعوا في الماضي. والذين سيعملون ضمن إطار برنامج عرفات سيعاملون من شعبهم والجماهير العربية بوصفهم عملاء للصهيونية. والذين سيحاولون أن يقبلوا الوقائع برضا أو عدم رضا سيدفعون الثمن، كما دفعوه دائماً.

سابعاً: إن كل الادعاءات، بأن العدو سيرحل عن كل الأرض وبأن كل اللاجئين سيعودون، وبأن الأموال ستتوافر لحل كل المشاكل التي خلّفها الاحتلال، لا تستند إلى بنود الاتفاق، ولا نجد لها إثباتاً في طبيعة العدو الصهيوني وسياساته. ذلك أن الاتفاق لا يضمن أي انسحاب شامل، ويؤكد أن السيطرة الأمنية العليا هي لدولة العدو. كما أن الاتفاق يتحدث عن التفاوض حول قضية القدس والمستوطنات واللاجئين ولا يتضمن الانسحاب من القدس، وتصفية قضية المستوطنات، وحلّ مشكلة اللاجئين. ورئيس وزراء العدو أكد في خطاب توقيع الاتفاق يوم 1993/9/13، أن القدس عاصمة أبدية «لإسرائيل». ومن مصلحة العدو أن يهجر لاجئين جدداً، وليس من مصلحته أن يعيد لاجئين سابقين. والقيادة الفلسطينية التي تخلت عن شروط المقاومة المسلّحة، بماذا ستجبر العدو على الانسحاب من القدس، وتصفية المستوطنات، وحل مشكلة اللاجئين؟ ثم إن السادات ادعى أمام المصريين أن «السلام» مع العدو الصهيوني سيُطلق أنهار سمن وعسل للشعب في مصر، فماذا وجدت مصر، منذ ارتباطها بالمخطط الأميركي - الصهيوني غير الشقاء؟ وكانت ادعاءات يلتسين مماثلة لادعاءات السادات، فماذا وجدت شعوب روسيا؟

وعليه، فإن قيادة عرفات التي تخلت عن المقاومة المسلّحة، وعن فلسطين، وانضمت إلى معسكر العدو، تحاول أن تخادع الجماهير بادعاءات وإشاعات لا يقوم عليها دليل ...

ولقد أثبتت قيادة عرفات أنّها من «مدرسة المسألة الشرقية»، وأنها لبست «الكاكي» وحملت السلاح، لتنتزع راية القيادة، ولتنفذ برنامجاً، آخر غير برنامج الميثاق والمقاومة.

وهو في الحقيقة برنامج «فرق السلام الفلسطينية» التي صفت ثورة 1936-1939.

فما الذي يعلّمنا إياه هذا كله؟

إنه يعلمنا ما يلي:

أولاً: أن وضوح البرامج ضروري لانتصار الثورات، حتى لو كان البرنامج من نقطة واحدة، وأن الاختلاط والغموض لا يخدمان إلا القوى المضادة، وأن سياسة التحرير والتسوية لا تلتقيان، وأن «لَعَمْ»، ليست لا ولا نعم، وأن القبول بهذا الخلط كله يقود إلى الذي نراه كله.

ثانياً: أن أي برنامج يحتاج إلى قيادة من نوعه. ولا يمكن أن تنفذ برنامج التحرير قيادة تسوية، وأن تُنجح تجربة المقاومة المسلحة قيادة غير حازمة وغير ملتزمة بالبرنامج وبالشعب وغير أمينة على برنامجها وعلى السياسات التي انطلقت معها.

ثالثاً: إن بروز خلل سياسي أو تنظيمي يحتاج إلى موقف حازم. وحين لا تتخذ القوى المعنية مثل هذا الموقف يتّسع الخرق، وتزداد خطورة الخلل. ولقد برز الخلل واضحاً منذ 1969، ولكن الفصائل والقوى الفلسطينية لم تعمل على معالجته، وظلت تتابعه وتهادنه، وتغطي عليه، حتى بلغ السيل الزبى... وحين كان بعضها يحاول معالجة الخلل كان لا ينجح في ذلك، لأنّه لا يتبع السياسات التي تقود إلى النجاح.

رابعاً: أن أغلب الأنظمة ومعظم الأحزاب والقوى السياسية العربية رأت الخلل، وغطته، وحمت مرتكبيه. وعمل بعضها على زيادته تفاقماً، بطريقة أو بأخرى. ويتحمل كل هؤلاء مسؤولية ما حدث، بقدر مشاركتهم ودورهم.

يبقى أخيراً أن فرق السلام الفلسطينية ستجهد لتصفية المقاومة. وعلينا أن نجهد لاستمرار المقاومة وتطويرها وتوسيعها، في كل الميادين، ومهما كانت الصعوبات.

ولما كان خيار غزة - أريحا ليس خيار المقاومة والتحرير والميثاق، بل كان خياراً استسلامياً تصفوياً، فإن على كل القوى الفلسطينية الحريصة على أرض فلسطين والملتزمة بحق شعبها في العودة إليها وممارسة سيادته على أرضه أنْ تتَّحد لتواصل مسيرة المقاومة ضد المشروع الأميركي والصهيوني.

وستكشف المعركة الوجه الحقيقي لفرق السلام الفلسطينية وستهزم هؤلاء المستسلمين الذين قرروا أن يُسقطوا هويتهم وأن يتخلوا عن حق شعبهم في وطنه ... وأن يصبحوا جزءاً من القوى المعادية.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 95
01 تشرين أول 2024

الإبادة الثقافية في غزة

فارس سعادة

تعرف الإبادة الجماعية بأنها الفعل أو الأفعال المتعمدة لتدمير جماعة قومية أو عرقية أو عنصرية أو دينية كلياً أو جزئياً، كما تعرفها المادة الثانية من اتفاقية الأمم المتحدة للإبادة الجماعية (1948). وتشمل الإبادة الجماعية كمصطلح قانوني في أروقة الأمم المتحدة أموراً مختلفة كالنية المسبقة بالقتل الجماعي والتطهير العرقي، كما تضيف الإبادة الثقافية كأحد عناصر هذه الإبادة، وفي بعض الحالات تحصل الإبادة الثقافية بشكل منفصل. كما أن التدمير الثقافي، كمصطلح يشير إلى تدمير ثقافة جماعة بشرية معينة، رفضه ممثلو الدول الغربية مثل الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وغيرها من الدول الاستعمارية لأسباب تتعلق بتاريخهم الدموي في مختلف دول العالم جنوبي الكرة الأرضية وشماليها.

فيما تدور المعارك الآن في جنوب لبنان وفي غزة والضفة بين المقاومة والجيش العدو تستمر الإبادة الجماعية للشعب العربي في فلسطين وفي لبنان، وبالرغم من ثانوية كل شيء في مقابل دماء شعبنا العربي الفلسطيني واللبناني، يجب علينا توثيق وتذكير أنفسنا بأن كل ما ينتمي لنا مستهدف من ثقافة وتاريخ كما البشر والحجر في غزة وخارجها، ويعد الإرث الثقافي أحد أهم الأهداف التي تم تدميرها في غزة خلال الأحد عشر شهراً الماضية.

يتشكل التراث أو الإرث الثقافي في غزة من تراث غير مادي وتراث مادي، أي أنه يشمل الشعر والأغاني الشعبية والأمثال الشعبية والموسيقى والكتب والثياب التقليدية وطرق الزراعة وكل ما يتعلق بالإنتاج البشري في غزة مهما قدم هذا الإرث، أما التراث المادي فيشمل المواقع الأثرية والتاريخية والتراثية والثقافية كالمتاحف والأعمال الفنية والأثرية والتراثية وصولاً إلى المعلومات الرقمية التي تتعلق بالأرشيف التاريخي وكل ما يوثق تاريخ غزة وما حولها.

لم يكن مستغرباً أن يقوم جيش الحرب هذا بتدمير المتاحف والمدارس والمساجد والكنائس التاريخية، فقد عمل على ذلك بشكل منهجي منذ احتلاله فلسطين التاريخية، ولكن هذه المرة تزامن هذا التدمير مع إصرار على استنفاذ كل الأدوات التدميرية والدموية لشطب كل ما يتعلق بهوية غزة وسكانها، وهذا ما نتج عنه إبادة جماعية بحق التراث الثقافي الفلسطيني في غزة وفي غالبه لا يمكن إصلاحه أو استعادته بالنظر إلى حجم الدمار الكبير الذي وصل في أغلب المواقع الأثرية وحتى المتاحف والدارات الثقافية إلى 100%.

الربط بين التدمير والعقلية الصهيونية واضح جداً في فترات وحروب وسياسات مختلفة في كل فلسطين وليس فقط في غزة، لكن المختلف هذه المرة هو الربط بين التدمير ومحاولة التطهير العرقي لطرد سكان غزة بشكل كامل من القطاع وإعادة سيطرتهم عليه. وهنا لا يمكن إلا أن يتم الربط بين الإبادة الجماعية والتطهير العرقي بما حدث ولا يزال يحدث لهذه المواقع الأثرية والتراثية وغيرها من معالم رياضية ودراسية وعلمية مهمة في القطاع.

يستمر التدمير الثقافي في غزة منذ ما يقارب العام، ونشير هنا إلى أن مصطلح الإبادة الجماعية المعتمد غربياً لا يعترف بالتدمير الثقافي كجزء من هذه الإبادة بالنظر إلى تاريخ الغرب الأسود في المشاركة في أكبر إبادة ثقافية في التاريخ البشري عندما تم احتلال الأراضي الجديدة في القارتين الأمريكيتين، وفي إفريقيا وآسيا ومحاولاتهم شطب الهوية العربية في الجزائر وبلاد الشام والعراق وصولاً إلى فلسطين. يرفضون بشكل فظ إدراج التدمير الثقافي لجماعة بشرية معينة ضمن مصطلح الإبادة بحيث يتيح لهم الاستمرار في إنكار وحشيتهم التاريخية ولتبرير ما يحدث الآن وما سيحدث مستقبلاً للكثير من الأمم المستقلة في حال بقي النظام الدولي تحت سيطرتهم.

وهناك التراث الطبيعي أيضاً الذي لم يسلم من آلة الحرب الصهيو-أمريكية والذي تضرر بشكل كبير ويشمل هذا التراث التضاريس وكل ما هو طبيعي من نبات وحيوان وحجر وحتى شاطئ البحر، هذا الدمار الواسع الذي حصل ولا يزال في غزة.

التدمير الثقافي في غزة

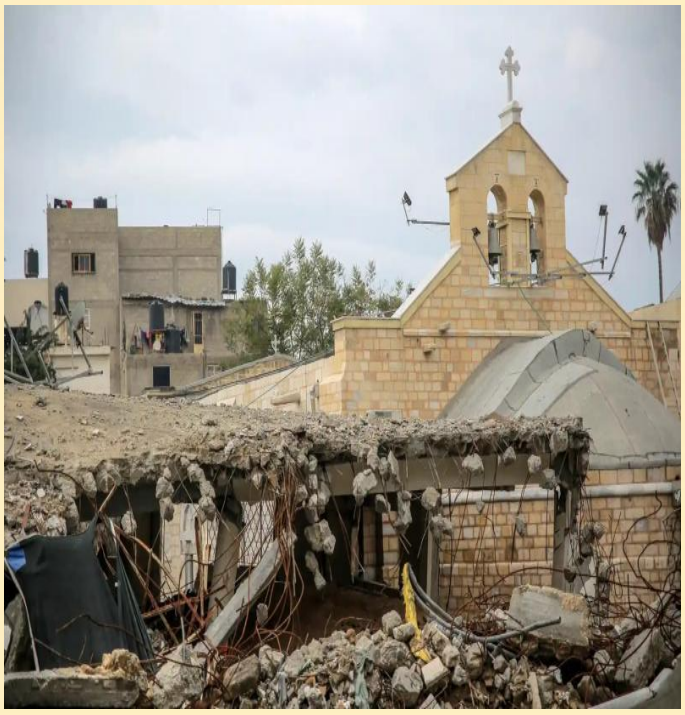

يمكن تسجيل حالات التدمير الثقافي الممنهجة للإرث الثقافي في فلسطين منذ 1872 تقريباً مع بداية نشاط الجيش البريطاني في المنطقة تحت إشراف وموافقة الدولة العثمانية سيئة السمعة، ففي مسح فلسطين الشرقية حصلت الكثير من التجاوزات على الأسماء التاريخية للمناطق بالإضافة إلى التزوير الكبير الذي حصل للخرائط والجغرافيا عبر تطعيمها زوراً بأسماء توراتية خيالية، بحسب مخيلة غربية متصهينة عنصرية.

ما يحدث في غزة الآن تحديداً هو استمرار لهذا التدمير المستدام مادياً ومعنوياً لكل الإرث الثقافي في غزة، وقد وثقت منظمة اليونيسكو والكثير من المنظمات ومراكز الأبحاث العربية والفلسطينية والأجنبية هذا التدمير بشكل كامل، وقد شملت عملية التدمير كل ما له علاقة بالثقافة بداية بالجامعات والمدارس وليس انتهاءً بالمتاحف والمواقع الأثرية المحمية بموجب ما يسمى

القانون الدولي الذي لا يتجاوز ثمنه ثمن الحبر الذي خط به.

عرفت غزة باسمها هذا منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد وقد وصفت بأنها أحد المدن الكنعانية في الكثير من النصوص المصرية القديمة، "غزاتو" هو اسمها القديم كما وصفت بأنها مدينة كنعان، فغزة التي ذكرت في النصوص الآشورية واليمنية القديمة هي من المدن القليلة التي رفضت الاستسلام للمقدونيين، وهي من كان العرب الأنباط يشرفون على مينائها التاريخي، وقد تم مسح أغلب تراثها الثقافي من على أرضها خلال أقل من عام.

التدمير المنهجي للتراث الثقافي التاريخي خلال الحرب

بحسب التقييمات الأولية (التقارير من على الأرض، وصور الأقمار الصناعية) لليونيسكو منذ بداية الحرب وإلى يومنا هذا، فقد تم تدمير 69 موقعاً أثرياً، 10 مواقع دينية، و43 بناءً تاريخياً أو ذي أهمية معمارية وفنية، ومستودعين للممتلكات الثقافية والأثرية، و6 نصب أثرية وتذكارية تاريخية ومتحفٍ واحدٍ و7 مواقع أثرية. وبالرغم من عدم دقة هذه التقارير بسبب استمرار الحرب وعدم القدرة على تقييم الخسائر بشكل دقيق، إلا أن الصور والمقاطع المصورة تشير إلى دمار أكبر مما ذكر في هذه التقارير يتجاوز أضعاف ما ذكر بسبب تدمير الكثير من مناطق القطاع المحتل بالطيران الحربي أو القصف أو التفخيخ المباشر لهذه المباني أو المواقع.

يستمر الاحتلال في سياسته المنهجية في محو وشطب الهوية العربية لفلسطين، فلم يكتفِ هذا الكيان العنصري المجرم بتدمير مئات القرى وعشرات المدن منذ عام 1948، بل استمر في سياسة التهويد والتغريب للأرض والإنسان من خلال تزويره للتفسيرات الأثرية وتدمير وإزالة المواقع الأثرية التي لا يمكن له توظيفها وتزوير سرديتها التاريخية لمصالحه الوجودية. هذه السياسة التي حاول الاحتلال إعطاءها شكلاً منهجياً وأكاديمياً عبر علم الأثار وتزويره الكثير من المواقع الأثرية بطرق مختلفة، وهذا الكيان الذي خلق في مخيال العقل الجمعي الغربي ووضع كسرطان خبيث في قلب الوطن العربي، انتقل خلال هذه الحرب من مرحلة التزوير والتدمير البطيء والمنهجي إلى الهمجية العمياء في تدمير كل ما يعكس هوية هذه الأرض الحقيقية بكل وحشية في غزة والضفة ولبنان، وأدى هذا التدمير المستمر في غزة تحديداً إلى فقدان مئات المواقع الأثرية للأبد في القطاع المحاصر، وإلى تدمير أغلب المعالم الثقافية والأكاديمية والبحثية في القطاع.

بالرغم من صعوبة حصر عدد المواقع المدمرة في غزة بسبب وحشية الحصار والاحتلال وأولوية إنقاذ البشر المحاصرين الجائعين في غزة، فقد تم حصر وتقييم الكثير من الأضرار في القطاع عن طريق المعاينة المباشرة من قبل المختصين المحليين هناك ومن خلال صور الأقمار الصناعية. يتفاوت حجم الأضرار من موقع إلى آخر بحسب كيفية الاستهداف ونوع الأسلحة التي تم استهدافها عبرها، ولكن عموماً نسب الدمار عالية لأغلب المواقع الثقافية وبعضها دمر بشكل كامل.

تستمر الإبادة الجماعية للشعب العربي في غزة وتستمر المقاومة الشرسة على كل شبر من القطاع الصامد، وأيضاً تستمر المحاولات في رصد وتوثيق كل الأحداث اليومية وممارسات الاحتلال الإجرامية، على رأسها قتل الأطفال ولا تنتهي بتدمير الجذور الثقافية للمدينة.

لا يمكن معرفة حجم الدمار وإمكانية إعادة تأهيل وترميم المباني المتضررة أو القطع التي دمرت أو تضررت بشكل أو آخر، ولكن الخطوة الأولى والممكنة هي توثيق هذه الأضرار بشكل أولي بحسب الإمكانيات المتاحة أثناء الحرب ونحن هنا ننقل ما تم توثيقه وهو لا يشمل كل ما تم تدميره بشكل منهجي ومتعمد من قبل جيش العدو.

المواقع الأثرية المدمرة

تل العجول: تعرضت هذه المستوطنة التاريخية التي تعود إلى العصر البرونزي لأضرار جسيمة، وتشير التقديرات إلى أن الدمار لحق بها بنسبة 70%.

بلاخية: تعرض الموقع، الذي كان بمثابة ميناء غزة من عام 800 قبل الميلاد إلى عام 1100 بعد الميلاد، لأضرار بنسبة 80%.

قصر الباشا: تعرض هذا الموقع، الذي كان في السابق متحفاً أثرياً، لتدمير بنسبة 60%.

مدينة أنثيدون القديمة: تشير التقارير إلى أن هذا الموقع تعرض للقصف والهدم بالجرافات، حيث بلغت الأضرار حوالي 75%.

مسجد ابن عثمان: تعرض هذا المسجد الذي يعود تاريخه إلى القرن الخامس عشر ميلادية لأضرار جسيمة، تقدر بنحو 50%.

الكنائس الأثرية

كنيسة القديس بورفيريوس: تعرضت هذه الكنيسة التاريخية لغارة جوية، مما أدى إلى أضرار بنسبة 40% وارتقاء شهداء بين المختبئين داخلها.

كنيسة جباليا البيزنطية: تعرضت هذه الكنيسة للتدمير الكامل، حيث تم الإبلاغ عن خسائر بنسبة 100%.

دير القديس هيلاريون: تعرض لأضرار جزئية تقدر بنحو 30%.

المساجد الأثرية والتاريخية

المسجد العمري الكبير: تعرض هذا المسجد المهم للتدمير بنسبة 50%.

مسجد الشيخ شعبان ومسجد ظفر دماري: تم تدمير المسجدين بالكامل، حيث تم الإبلاغ عن خسائر بنسبة 100%.

مساجد حديثة: تم الإبلاغ عن تدمير ما يقرب من 83% من المساجد في غزة، أي ما يعادل حوالي 1000 مسجد من أصل 1200 مسجد.

المتاحف والمراكز الثقافية

متحف رفح: تم افتتاحه مؤخراً وهو مخصص للتراث الفلسطيني، وقد تعرض لتدمير جزئي بنسبة 60%.

متحف القرارة: يضم هذا المتحف حوالي 3000 قطعة أثرية تعود إلى العصر البرونزي وقد تعرض لأضرار جسيمة تقدر بنحو 70%.

متحف المتحف: تأسس كمتحف وطني للآثار، وقد تعرض للقصف والتدمير حيث تم الإبلاغ عن تدمير حوالي 80%.

مركز الشوا الثقافي: يضم هذا المركز مكتبة تضم حوالي 20 ألف كتاب، وقد دمر مع خسارة حوالي 90% من بنيته التحتية.

مركز غزة للثقافة والفنون: يشتهر هذا المركز بمهرجان السجادة الحمراء السينمائي، وقد دمر أيضاً مع خسارة حوالي 70% من بنيته التحتية.

ملخص الأضرار الثقافية

وفقاً للتقارير المختلفة:

تم تدمير أو تضرر حوالي 65% من مواقع التراث الثقافي في غزة منذ أكتوبر 2023. تحققت اليونسكو من الأضرار التي لحقت بما لا يقل عن 43 موقعاً للتراث الثقافي، بما في ذلك المواقع الدينية والمباني التاريخية والمتاحف والمواقع الأثرية. كما أفادت وزارة الثقافة الفلسطينية أن أكثر من 200 من أصل 320 مبنى تراثي تحولت إلى أنقاض أو تضررت بشدة، مما يشير إلى خسارة حوالي 62%. يُنظر إلى هذا التدمير المنهجي على أنه جزء من استراتيجية أوسع تؤثر على الهوية والتراث الثقافي الفلسطيني بشكل كبير خصوصاً مع استمرار العدوان الهمجي على شعبنا العربي الفلسطيني.

المصادر:

- Gaza Strip: Damage assessment | UNESCO
- Israel Is Systematically Destroying Gaza's Cultural Heritage (jacobin.com)
- Unesco verifies damage to 43 cultural heritage sites in Gaza - Museums Association
- The Failure to Protect Palestinian Cultural Heritage (sapiens.org)
- When Protectors Become Perpetrators: The Complexity of State Destruction of Cultural Heritage - IPI Global ObservatoryIPI Global Observatory (theglobalobservatory.org)

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 95
01 تشرين أول 2024

كلمات مشرقية عامية مقارنة بأخرى بربرية

سعيد بن عبدالله الدارودي

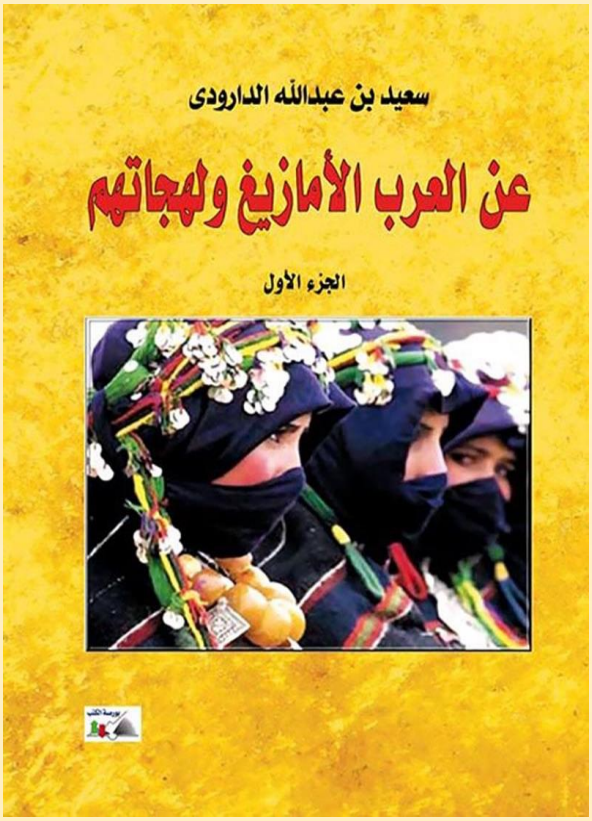

ما وضعته ـ هنا ـ يدخل في مشروع التنقيب عن جذور اللهجات البربرية في لغات ولهجات المشرق العربي، أمّا اللغة الصومالية فهي برغم كونها من اللغات العربية العروبية القديمة بحسب الدارسات التي قام بها باحثون صوماليون وغير صوماليين؛ إلّا أنني رأيت أن أضع مفرداتها التي اخترتها للمقارنة مع مفردات بربرية في هذه المقالة التي تسرد نماذجاً من تشابه معجمي بين الدوارج المشرقية واللهجات البربرية بالمغرب العربي؛ واللغة الصومالية هي اللغة الشعبية الوطنية في الصومال الكبير، الذي تدخل فيه جيبوتي والأراضي الصومالية المحتلة من طرف الحبشة وكينيا.

وقد يسأل سائل؛ وأين دوارج اليمن؟ والجواب أنني فضلّت أن تكون وحدها في مقالة خاصَّة بها، وأمّا من يتساءل عن عدم ذكري لمفردات من الدارجة الظفارية؛ فذلك مردّه أنني جعلتها في مقالة مع بقية اللهجات الظفارية. وأخيراً لا يظن أحدٌ أنني تجاهلت أو تناسيت العروبيات المتبقية كالأكّادية والكنعانية والمصرية القديمة؛ فهي في البال كأخواتها المذكورة أعلاه، ولقد جمعت مفرداتها المختارة في مقالة واحدة؛ فالمقارنات بين البربريات واللغات واللهجات العربية العروبية قادمة بإذن الله؛ وذلك بعد إعدادها إعداداً جيّداً.

والآن لنبدأ بذكر مختاراتي من الألفاظ المعجمية المقارنة :

فإليكم بدايةً مفردات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بأخرى من دارجة عرب الأردن:

في البربرية إكرفت: بَرَكَ البعيرُ. وفي العامية الأردنية إتْكَرْفَتْ: سقطَ على الأرض رَغْماً عنه.

في البربرية أفنّيش: الأفطس. وفي العامية الأردنية الأَفْنَش: الأفطس.

في البربرية تادّاگت: الشجرة. وفي العامية الأردنية الدوكة: المجموعة من الأشجار الكبيرة والكثيفة.

في البربرية أردّح: الرَّقص. وفي العامية الأردنية الرَّدْح: الرَّقص.

في البربرية الكبش: أزامار، إزيمر. وفي العامية الأردنية السَّمار: الماعز.

في البربرية أفيتال: الوَعْل، أي التيس الجبلي. وفي العامية الأردنية الفتلا: الشاة التي آذانها مرتخية.

في البربرية اسفناري وفي العامية الأردنية اِسفلين: الجَزَر البريُّ.

في البربرية يوزّل: سال. وفي العامية الأردنية زَلْ: سالَ.

في البربرية أبقيق: الأحمق. وفي العامية الأردنية بقيَّق: الشخص الذي يؤذي الناس ويكدّر أنفسهم ويُزعِجهم بتصرفاته؛ وهذه من صفات الأحمق.

في البربرية أگال: المهر، أي ما يدفعه الزوج إلى زوجته بعقد الزواج. وفي العامية الأردنية أكال: ما يمنحه صاحب الأشياء المسروقة لمن يأتي بأي معلومة عن السارق والمسروقات.

في البربرية: إمودّا: سافرَ. وفي العامية الأردنية يمدّ: يسافر. ويذكر الدكتور محمد المعشني في كتابه { لسان ظفار الحميري المعاصر} بأن كلمة "مَدْ" في العامية العُمانية معناها ذهبَ سافرَ، ويذكر كذلك بأن الفعل "مِدْ" في اللهجة الجَبّالية والتي تُسمى أيضاً باللهجة الشَّحْرية؛ تلك اللهجة التي تنتمي لعربية جنوب شبه جزيرة العرب يعني انطلقَ لا يلوي على شيء، ويشير المعشني إلى هذه اللهجة باسم لسان ظفار الحميري المعاصر.

وإليكم مفردات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بأخرى من دارجة عرب الإمارات:

في البربرية إدّم: غَرِقَ. وفي العامية الإماراتية دَم الشيء: أَغْرَقَهُ.

في البربرية إسرّبرب: أكثرَ من الكلام. وفي العامية الإماراتية رَبْرَب: هذر وخلط بالكلام

في البربرية إسّيفض: بَعَثَ، أرسلَ. وفي العامية الإماراتية سَفَط: أعطى، منح.

في البربرية أنگاف: الحَجَر. وفي العامية الإماراتية المَنْگف: صخرة تظهر على سطح البحر.

في البربرية تاورّايت: الحَصَى. وفي العامية الإماراتية الوِرِي: نوع من الصخور المرجانية.

في البربرية أدبّوز: عصا غليظة. وفي العامية الإماراتية الدَّبُّوس: عصا غليظة.

وإليكم مفردات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بأخرى من دارجة عرب البحرين:

في البربرية إقرف: الشَّلَل. وفي العامية البحرينية أكرف: ذو العاهة في رِجْلِيه.

في البربرية إميم: اللذيذ من الطعام. وفي العامية البحرينية ممّ: الأكل (في لغة الأطفال).

في البربرية إنضر: قفزَ. وفي العامية البحرينية نَطَر: قفزَ.

في البربرية إرگس: اِنْدفنَ (إستترَ وتوارى). وفي العامية البحرينية رَكَس: غاصَ في الأعماق.

في البربرية بروا، برّو: الطَّلاق. وفي العامية البحرينية أعطاها بَروتها: طَلّقها.

في البربرية شال، أشال: التراب. وفي العامية البحرينية الشَّل: المكان ذو التراب المختلط مع الماء، ونجد في العامية الإماراتية الشِّل: نوع من رمل الصحراء الناعم.

وإليكم مفردات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بأخرى من دارجة عرب السعودية:

في البربرية أَسميط: البَرْد. وفي العامية السعودية السَّمْطة: البَرْد القارس.

في البربرية أسمّاض: بارد. وفي العامية السعودية صامط: بارد.

في البربرية أوقجير: سيء الخُلُق. وفي العامية السعودية أوقيشر: سيء الخُلُق.

في البربرية أغُراب: الجِدار. وفي العامية السعودية الغَرَّابة: أعلى غرفة في البيوت الكبيرة.

في البربرية تادابوت: السَّرير. وفي العامية السعودية الدَّبَب: مكان مرتفع للجلوس عليه.

في البربرية أخنفور: الأَنف الكبير. وفي العامية السعودية الخُنْفَر: الأَنف الكبير.

في البربرية أحبّوض: الكِرْش؛ أعبّوض: البَطْن الذي لا يكاد يشبع. وفي العامية السعودية. الحُبْط: البَطْن؛ الحُبْطة: بروز البَطْن من شبع.

وإليكم مفردات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بأخرى من لسان عرب الصومال:

في البربرية كلمة أبليوْ: الجِفْن. وفي الصومالية بار: الهُدْب.

في البربرية أبنّان: الباطل. وفي الصومالية بِين: الكذب.

في البربرية أگضي: الحُفرة. وفي الصومالية گُد: الحُفرة.

في البربرية أجاداو: الشَّديد الحُمْرة. وفي الصومالية گُدود: الحُمْرة.

في البربرية أقّريان: دويُّ المدفع. وفي الصومالية قُري: البندقية.

في البربرية أمزّاوّو: الأفعى. وفي الصومالية مَسْ: الأفعى، الثعبان، الحيَّة.

في البربرية أوايلال: الأبله. وفي الصومالية وال: المجنون.

في البربرية نجد كلمة تونت تعني النصيب، القِسْم؛ وفي الصومالية نجد (أَيَان) اسماً من أسماء الأعلام المؤنثة الشهيرة ومعناه المحظوظة / صاحبة الحظ.

وإليكم مفردات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بأخرى من دارجة عرب العراق:

في البربرية تاكامّارت: الجُبْن. وفي العامية العراقية القِيْمَر: القِشدة.

في البربرية إكومار: غُرْفة النوم. وفي العامية العراقية القَمَارة: قاعة الدار.

في البربرية إغندف: عَبَسَ. أمغندف: العَبُوس وفي العامية العراقية غَنْدَب: عَبَسَ. المْغَنْدَب: العَبُوس.

في البربرية أفالا، تافالا: الحَرْبَة. وفي العامية العراقية الفالة: حربة تُستخدم في صيد السمك.

في البربرية أشنيار: العَلَم. وفي العامية العراقية الشنيور: العَلَم.

في البربرية أگلّيد: المَلِك والحاكِم. وفي العامية العراقية الگليط: كبير العشيرة.

وإليكم مفردات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بأخرى من دارجة عرب الكويت:

في البربرية إلّيْ: حامَ، حَلَّقَ، يويْلْ: طارَ. وفي العامية الكويتية الطير يلالي: الطائر يحوم حول الفخ.

في البربرية أمصوض: المجنون. وفي العامية الكويتية مسودن: مجنون.

في البربرية تاسمّات: الحَصَاة. وفي العامية الكويتية الصَّمّيّة: الحجر الأملس ليس بحادّ الجوانب.

في البربرية تاسّاست: الشَّدُّ والإحكام. وفي العامية الكويتية الصَّي: شَدُّ الحبل وإحكامه.

وإليكم مفردات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بأخرى من دارجة عرب سورية:

في البربرية أسگّان: الأسود. وفي العامية السورية السگني: اللون الرمادي الداكن.

في البربرية أموري: الأزرق في دُكْنة. وفي العامية السورية المُوْر: اللون الأزرق القرمزي.

في البربرية أخربيش: البيت المتداعي للسقوط. وفي العامية السورية الخربوش: البيت المتداعي للسقوط.

في البربرية تيكيفاف: نوع من صفيح الحَجَر. وفي العامية السورية الكَفِّيَّة: الحجر الصغير.

في البربرية إسفلفل: استشاط غضباً. وفي العامية السورية فَلَفَلْ: استشاط غضباً.

في البربرية إلكك: ضَعُفَ. وفي العامية السورية لَكّْ: ضَعُفَ الرجلُ.

في البربرية إلالن: الأجنحة، وهنا النون مزيدة لأنها أداة جمع، ولقد أوردها محمد شفيق بمعجمه في مادة "جنح" دون أن يذكر مفرداً لها من لفظها. ونجد في العامية السورية لِلْ: جناح الطائر بدون ريش.

وإليكم مفردات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بأخرى من دارجة عرب عُمان:

في البربرية أهدير: اللهَب (لسانُ النار). وفي العامية العُمانية هَدَّر: أضرمَ النارَ.

في البربرية تابرات: الرسالة. وفي العامية العُمانية البَرْوَة: الرسالة.

في البربرية يسكف: شربَ السائل بسرعة مع إحداث صوت. وفي العامية العُمانية سَكَّف: تجرّعَ الشرابَ دفعة واحدة.

في البربرية باهرا: كثيراً. وفي العامية العُمانية بْهار: كثير، وتعني أيضاً وحدة وزن معينّة.

في البربرية إغلي: طلعَ، بزغ. وفي العامية العُمانية يغلي: يرمي الشيء إلى الأعلى.

في البربرية إكرز: حرثَ. وفي العامية العُمانية قرز: حرث.

وإليكم مفردات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بأخرى من دارجة عرب فلسطين:

في البربرية تاخوصت: السِّكّين وفي العامية الفلسطينة الخُوصة: السِّكّين.

في البربرية تاخشوشت: الملجأ الصغير. وفي العامية الفلسطينة الخَشَّة: الغرفة الصغيرة.

في البربرية تاگراوت: الجماعة، الجَمْع. وفي العامية الفلسطينة كَرَّة: مجموعة من الرجال.

في البربرية إهود: نزلَ. وفي العامية الفلسطينة هَوَّد: نزلَ.

في البربرية إفتا ذهبَ. وفي العامية الفلسطينة فض: هربَ.

وإليكم مفردات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بأخرى من دارجة عرب قطر:

في البربرية أغير: الزُّقاق. وفي العامية القطرية العاير: الزُّقاق .

في البربرية أزالّوا: إناء من خزف له عروة يُشرب منه الماء. وفي العامية القطرية الزّيْلَة: الدلو.

في البربرية أبرنوص: صنف من الأردية. وفي العامية القطرية البرنوص: اللحاف.

في البربرية أخشوش: الجمجمة. وفي العامية القطرية الخشَّة: الوجه.

وإليكم مفردات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بأخرى من دارجة عرب لبنان:

في البربرية أحردان: الضَّبُّ. وفي العامية اللبنانية الحرذون: الضَّبُّ.

في البربرية إكركب: دحرج الشيءَ. وفي العامية اللبنانية دركب: دحرج الشيءَ.

في البربرية تاژنگارت: التَّكَبُّر. وفي العامية اللبنانية الزنطرة: التَّكَبُّر.

في البربرية إگرْوش: قَضَمَ الشيءَ بأسنانه. وفي العامية اللبنانية قرش: قَضَمَ الشيءَ بأسنانه.

في البربرية تالابوت: الغُصْن الرخص الناعم. وفي العامية اللبنانية لَبْلُوْبَة: الغُصْن الرخص الناعم.

في البربرية تيزيزْوا: النَّحْل. وفي العامية اللبنانية زيز: الخنافس وما شاكلها.

في البربرية إزي: الذُّبابة. وفي العامية اللبنانية وَزَّ الذُّباب: صاتَ وَطَنَّ؛ فمن الطنين الذي يصدر من الخفقان السريع لأجنحة الذبابة جاءت تسميتها في البربرية.

في البربرية تاسكّورت: أنثى طائر الحجل. وفي العامية اللبنانية السِّرِكّة: أنثى طائر الحجل.

إليكم مفردات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بأخرى من دارجة عرب مصر:

في البربرية تافرتونت: الفِتْنَة. وفي العامية المصرية فُرْتينة: الفِتْنَة التي تفسد الصداقة.

في البربرية تيملسيت: الثوب، الرداء. وفي العامية المصرية المَلَس، الملّاس: صنف من الثياب النسائية.

في البربرية إدغدغ: بالغَ في الدَّق. وفي العامية المصرية دغدغ فلان: ضربه ضرباً مبرحاً.

في البربرية تيلّيت. وفي العامية المصرية آلو: صبيّة، فتاة.

في البربرية أقرماض: البخيل. وفي العامية المصرية المقرّمط: البخيل في مصاريف البيت ونحوها.

في البربرية ألكض، ألگژ: البطيخ الأحمر اللب. وفي العامية المصرية اللُّقشة: البطيخة الحمراء اللب الصغيرة الحجم، الجمع: لُقش.

في البربرية أدلال: شَعَر المرأة السَّبْط الطويل. وفي العامية المصرية: هَدَلت البنت / السِّت شَعرها: أرختَه.

في البربرية أزرُّويْ: الإدام. وفي العامية المصرية: الإزار: الدسم الموجود باللحم.

في البربرية إرد: حَبَّة القمح. وفي العامية المصرية: الرَّدَّة: دقيق القمح على وجه الرَّغيف.

ونختم ببعض من الكلمات البربرية وجذورها في اللغة العربية:

في البربرية إژضا: طحنَ. وفي العربية أضزَ: طحنَ.

في البربرية إگُّرن: الطحين، الدقيق. وفي العربية الجرين.

في البربرية إفر: أخفى. وفي العربية فأرَ الشيء: أخفاه.

في البربرية إژلم: قشرَ. وفي العربية زلم: قشرَ.

في البربرية أمنتاس: الفأس. وفي العربية المِلطاس: المعول.

المصادر والمراجع

* القاموس المحيط ـ الفيروزآبادى.

* الكاشف (قاموس عربي صومالي) ـ مؤمن يوسف عالم جيلي

المرجع السبلاوي في الكلام المصراوي ـ ناصر سبلة

المعجم العربي الأمازيغي ـ محمد شفيق

قاموس اللهجات الأردنية ـ علي سالم محمد بني مصطفى

كلمات من العربية الصومالية ـ سعيد بن عبدالله الدارودي

معجم الألفاظ العامية ذات الحقيقة والأصول العربية ـ عبد المنعم سيد عبد العال

معجم الألفاظ العامية في دولة الإمارات العربية المتحدة ـ فالح حنظل

معجم الألفاظ والتعابير الشعبيّة ـ محمد جمال

معجم المفردات العامية العُمانية ـ عبدالله بن صالح بن خلفان

معجم اللهجات المحكية في المملكة العربية السعودية ـ سليمان ناصر سليمان الدرسوني

معجم لسان ظفار الحميري المعاصر ـ محمد بن سالم المعشني

موسوعة اللهجة الكويتية ـ خالد عبدالقادر

موسوعة العامية السورية ـ ياسين عبد الرحيم

العروبة والمسيحية والعرب المسيحيون في عصر النهضة: الجزء الثالث والأخير

إبراهيم علوش

(جرى التطرق في الجزء الأول في هذه المادة إلى العرب المسيحيين قبل الإسلام، وفي الجزء الثاني منها إلى العرب المسيحيين بعد الإسلام، ويتناول الجزء الثالث والأخير هنا العرب المسيحيين منذ عصر النهضة الحديثة في القرن 19)

العرب المسيحيون في عصر النهضة الحديث

بدأ عصر النهضة العربي الحديث مع محمد علي باشا في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكان محمد علي يحمل مشروعاً نهضوياً وحدوياً حداثياً، لكنه كان يحمل معه أيضاً مشروع دولة مواطنة، يتساوى فيها المواطنون في الحقوق والواجبات، بغض النظر عن عرقهم أو طائفتهم، وكان إبراهيم باشا ابنه قائد حملاته التي نجحت في فترةٍ ما في بناء دولة عربية امتدت بين وادي النيل وبلاد الشام وبعض شبه الجزيرة العربية. استمرت تلك الدولة ردحاً من الزمن حتى هرعت القوى الأوروبية العظمى إلى نجدة السلطنة العثمانية ضده، فارضةً على محمد علي الانسحاب من كل المشرق العربي،

وتفكيك مجمعه العسكري الصناعي في مصر، وبادئةً بوضع الخطط الاستراتيجية لتأسيس الكيان الصهيوني في فلسطين كحاجز جغرافي-سياسي غريب يمنع قيام دولةٍ عربيةٍ واحدة في العصر الحديث.

نشأت على هامش حركة محمد علي باشا النهضوية الوحدوية في مصر والمشرق العربي حركة ثقافية ذات طابع حداثي تنويري، اتخذت لوناً قومياً عروبياً في كثيرٍ من الأحيان، وكان للعرب المسيحيين دورٌ فيها. ولعل من قوانين التاريخ البشري أن الحركات التغييرية الكبرى تولد بالتفاعل مع حركات ثقافية وفكرية كبرى توازيها، فالثورة الصناعية في أوروبا تقابل عصري النهضة والتنوير، والحركة الاشتراكية وازتها أعمالٌ فكريةٌ وثقافية كبرى ما زالت تمارس نفوذها حتى اليوم، وحتى المقاومة الفلسطينية المعاصرة أنتجت ظاهرة الشعر الفلسطيني المقاوِم وفكراً سياسياً مقاوِماً.

تفاعل العرب المسيحيون (وغير المسيحيين) مع دعوة "دولة المواطنة"، مقابل دولة الملل والنِحل التي أسسها العثمانيون، باتجاهين متناقضين: الاتجاه الأول، مثله زعماء الطوائف والإقطاعيات، من مسيحيين وغير مسيحيين، والذين شعروا بخطر دولة المواطنة ذات الطابع المركزي على مواقعهم الاجتماعية والسياسية، فعملوا مع الدول الغربية والعثمانيين على محاربة المشروع الوحدوي النهضوي. أما الاتجاه الثاني، فمثلته العناصر الأكثر وعياً وتمتعاً بالحس الوطني العابر لحدود الملل والنِحل الضيقة، والأكثر رغبة بالارتقاء بالبلاد إلى مستوى الدول المتقدمة.

لا دولة مركزية من دون كفاءات إدارية وتقنية وثقافية تدير مفاصلها، وكان من أبرز معالم النهضة الثقافية التي رافقت جهود محمد علي التنويرية تأسيس "مدرسة الألسن"، وكان قائد الحراك الثقافي في مصر أيام محمد علي أحد أبرز قادة النهضة العلمية في مصر والوطن العربي، رِفاعة رافع الطهطاوي، والذي ينتسب إلى محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن فاطمة الزهراء.

ويسود قانون الانحطاط مجدداً عندما جاء عباس الأول حاكماً لمصر، ولم يكن راضياً عن سياسات جده محمد علي، وعمه إبراهيم باشا، وكان قد تعرض لتأثيرات وهابية خلال ترعرعه في شبه الجزيرة العربية، فأغلق مدرسة الألسن، ونفى رفاعة رافع الطهطاوي إلى السودان لإدارة مدرسة ابتدائية!

لكن جِنِّي التنوير والحس القومي كان قد أُطلِق من قمقمه، لتنشأ حركة النهضة العربية تحت مزيجٍ من الاحتلالين العثماني والأوروبي، بعد أن جرى ضَربُ مشروع الوحدة العربية الذي مثله محمد علي باشا، فنشأت فيها اتجاهات إسلامية تنويرية، واتجاهات قومية عروبية، واتجاهات ليبرالية متغربة.

في المشرق العربي، كان ناصيف اليازجي، المولود في لبنان من عائلة أصلها من حمص، مسيحياً كاثوليكياً عمل كاتباً 12 عاماً لدى الأمير بشير الشهابي، ذراع إبراهيم باشا اليمنى في بلاد الشام. وعندما انتهى عهد الأمير بشير الثاني عام 1840، مع احتلال القوات الأوروبية بلاد الشام وإعادتها للعثمانيين، انتقل ناصيف اليازجي إلى بيروت واشتغل بالعمل الثقافي، وينسب إليه فضل البدء بإعادة إحياء اللغة العربية وآدابها في العصر الحديث.

جرى إبراهيم اليازجي مجرى أبيه ناصيف في إحياء اللغة العربية وآدابها، وكان شاعراً مثل أبيه، وله قصيدة "تنبهوا واستفيقوا أيها العرب" التي ألقاها في الجمعية العلمية السورية في وقت ما حول عام 1870، وتعد من أولى الدعوات القومية العربية الصريحة.

لم يكن ناصيف اليازجي وابنه إبراهيم إلا مثالين على انخراط العرب المسيحيين في المشرق في النهضة العربية الحديثة، ويمكن أن نضيف إليهما عشرات الأسماء الكبيرة، مثل بطرس البستاني، أول من ابتدأ موسوعة، أو دائرة معارف، باللغة العربية في العصر الحديث، وهاجر عدد من المشارقة إلى مصر حيث أسهموا في تأسيس الصحف والمجلات، كما فعل جرجي زيدان، الذي أسس مجلة "الهلال" عام 1892، وكما فعل فارس الشدياق، الذي نشر أول رواية باللغة العربية في العصر الحديث، "الساق على الساق"، عام 1855. ويذكر أن فارس تحول إلى الإسلام لاحقاً واتخذ اسم أحمد، وكان من مناهضي فرض التتريك على العرب.

تكثر المراجع عن دور العرب المسيحيين في تأسيس الجمعيات والصحف والمجلات وفي وضع المؤلفات التي أصبحت معالم بارزة في النهضة العربية الحديثة، لذلك لن أكررها هنا. لكن تجدر الإشارة إلى أن الغرب، ولا سيما بريطانيا وفرنسا، ثم الولايات المتحدة، بذلت جهوداً حثيثة في استقطاب المثقفين العرب واختراقهم وتوظيفهم ضمن أجنداتها، وفي اختراق الحركة العربية القومية ذاتها، وغيرها طبعاً. وتفاقمت تلك المشكلة طبعاً بعد منح العثمانيين بعض الدول الأوروبية "حق" حماية "أقليات" بعينها.

نموذجان للقيادات العربية المسيحية في مستهل القرن العشرين

على الرغم من محاولات الغرب النشطة، ظلت الكتلة الرئيسية للعرب المسيحيين منسجمة مع الإيقاع العام لإخوانهم العرب من كل الطوائف في مناهضة الاحتلال الأجنبي، وفي الدعوة للوحدة العربية. ويبرز هنا نموذجان نقدمهما على سبيل المثال لا الحصر:

1) الزعيم مكرم عبيد في مصر، والذي انضم إلى حزب الوفد عام 1919، وكان ناشطاً ضد الاحتلال الإنكليزي، ونفي من طرف الاحتلال البريطاني من جراء ذلك. وفي نيسان 1939، أصدرت مجلة "الهلال" المصرية عدداً خاصاً عن العروبة والإسلام كتب فيه مكرم عبيد: "تعيدون إلى نفسي ذكرى عزيزة مرت حادثتها قبل بضعة أعوام، فقد سافرت في رحلة صيفية إلى سورية، وتفضل إخواني السوريون في الشام ولبنان وفلسطين فشملوني بترحيبهم وتكريمهم، فوقفت يومئذٍ وتحدثت عن الوحدة العربية وقلت "المصريون عرب"، وأبديت رأيي في هذه النظرية التي يؤيدها التاريخ، فنحن معشر المصريين جئنا من آسيا، ونحن أدنى إلى العرب منذ القدم من حيث اللون واللغة والخصائص السامية والقومية". وأضاف عبيد في المقالة ذاتها أن "الشرق العربي في حاجةٍ إلى الوحدة والتضامن أمام التيار الأوروبي الجارف، وأبناء العروبة في حاجة إلى أن يؤمنوا بعروبتهم وبما فيها من عناصر قوية استطاعت

أن تبني حضارة زاهرة، وأن تُخضع البلاد الأجنبية لها حقبةً طويلةً من الزمان". وكان ذلك قبل جمال عبد الناصر وانتشار النزعة الناصرية بزمنٍ طويلٍ نسبياً.

2) الزعيم فارس الخوري في سورية، وهو زعيم وطني سوري كان قريباً من جمعية "العربية الفتاة"، سجنه جمال باشا السفاح ثم نفاه إلى إسطنبول، وأيد الثورة العربية الكبرى عام 1916 والثورة السورية الكبرى عام 1925. شارك الخوري في مواجهة الانتداب الفرنسي، وسجن في جزيرة أرواد من جراء ذلك، ويعد من آباء الدولة السورية، وأحد مؤسسي كلية الحقوق في جامعة دمشق، كما أنه تسلم تكراراً مواقع حزبية ونيابية ووزارية شتى، منها رئاسة مجلس النواب ورئاسة الوزراء، ويذكر عنه أنه "عندما احتلت فرنسا سورية حاولت استمالة المسيحيين، فأبلغ الجنرال غورو فارس الخوري بأن فرنسا جاءت إلى سورية لحماية مسيحيي الشرق، فقصد الخوري الجامع الأموي يوم الجمعة وصعد المنبر وقال مخاطباً المصلين: "إذا كانت فرنسا تدعي أنها احتلت سورية لحمايتنا نحن المسيحيين من المسلمين، فأنا كمسيحي أطلب الحماية من شعبي السوري، وأنا كمسيحي من هذا المنبر أشهد أن لا إله إلا الله"، فأقبل عليه المصلون وحملوه على الأكتاف وخرجوا به في مظاهرةٍ تطوف أحياء دمشق، وخرج المسيحيون من أهل دمشق يومها في مظاهرات حاشدة ملأت دمشق وهم يهتفون "لا إله إلا الله".

العبرة أن نزعة الاندماج تحت عنوان وطني عروبي، وعلى قاعدة دولة المواطنة، ظلت حاكمة في صفوف العرب المسيحيين، ولا يلغي ذلك ظهور حالات انعزالية تزايدت وتيرتها مع تقهقر حالة الأمة العربية، وترافقت في حالات بعينها مع التأثر بفكر تغريبي مناهض للعروبة، كما رأينا في حالتي سعيد عقل وشارل مالك، أو في حالة لويس عوض الذي كتب سلسلة مقالات في "الأهرام" عن "فرعونية مصر"، بدلاً من عروبتها، وكان ذلك شرطاً ثقافياً لتعميق الانخراط في كامب ديفيد.

فلسطينياً، راحت تظهر حالات مثل عزمي بشارة بدلاً من جورج حبش ووديع حداد وكمال ناصر إلخ...، وسورياً، طفت حالات مثل ميشيل كيلو بدلاً من ميشيل عفلق وقسطنطين زريق وإلياس فرح.

بالمقابل، لا يجوز أن ننسى أن الحركة القومية الحديثة لم يصنعها ميشيل عفلق وقسطنطين زريق، بل كان من روادها الأوائل عبد الرحمن الكواكبي وساطع الحصري ومحمد عزة دروزة وزكي الأرسوزي وغيرهم من المسلمين. وبأن دعاة "خصوصية مصر الفرعونية" ضمت أيضاً مسلمين مثل أحمد لطفي السيد وطه حسين ونجيب محفوظ.

هل تجوز نسبة الحركة القومية العربية إلى المسيحيين؟

يجيب المفكر ناجي علوش على هذا السؤال بالآتي، ونقتطف هنا من مقالة أطول له بهذا الصدد:

"لقد تسربت هذه الاتهامات إلى الفكر السياسي العربي، وإلى كتب المدارس والجامعات، حتى إبان النهوض القومي، وصارت لازمةً لأي حديثٍ عن القومية. ودافعَ عن مثل هذه الأطروحات مؤرخون قوميون وسياسيون قوميون، وأساتذة أجلّاء. فتبنوا في معظمهم التحليل الذي روّجه جورج أنطونيوس، ولم يخضِعوه للتدقيق، مع أنه يربط نشوء الحركة القومية بالإرساليات، وبدور المسيحيين العرب الثقافي. وما زال الكثيرون ينسجون على هذا المنوال، ومنه ما يقدمه ألبرت حوراني وهشام شرابي وبسام طيبي وغيرهم. ولذلك، فقد آن الأوان أن تُكشف هذه اللعبة، وأن ينجلي الحق.

إن الحركة القومية لم تنشأ في مدارس الإرساليات، ولا ضمن مخططات الدول الأجنبية. لقد نشأت في وسط عربي إسلامي صميم. ولقد أسهمت في تأسيسها حركات سلفية كالوهابية والسنوسية والمهدية، وقام ببلورة برامجها رجال دين كبار محترمون، ينتسبون إلى عائلات وقبائل عربية، وبعضهم كالكواكبي والزهراوي ينتسبون إلى الرسول، بالإضافة إلى رموز مثل رفاعة الطهطاوي وعبدالله النديم وحسن الشمسي. إن الشخصيات الأساسية في التأسيس للحركة القومية كانت شخصيات إسلامية، ولم يكن للشخصيات المسيحية أثرٌ يذكر، سواء على صعيد الدور السياسي أو الثقافي، وإن كان لبعضها دورٌ، فعلى صعيد الصحافة واللغة والتعليم، وضمن إطار الإصلاح العام العثماني. وإذا برز دور بعض هؤلاء، مثل اليازجيين وآل البستاني وجرجي زيدان، فقد كان هذا الدور ثقافياً مسالماً، إلا في حالة كحالة فرح أنطون، مع أن هذا الدور لم يتعدّ الأدب والفكر والثقافة إلى السياسة المباشرة، وكان جزءاً من نهضة ثقافية عامة، وتالياً لدور إدارة محمد علي في مصر.

ولو أخذنا باحثاً رصيناً مثل سي أرنست دون، في كتابه "من العثمانية إلى العروبية، مقالات حول أصول القومية العربية" From Ottomanism to Arabism: Essays on The Origins of Arab Nationalism، المنشور في العام 1973، لوجدناه يفنّد هذه الفكرة، فهو يرى أن "التفسير المسيحي يواجه صعوبات لا يمكن التغلب عليها... لأن أصحابه لا يقدمون أي دليل أو حجة مقنعة تؤيد التعاطف المفترض بين العرب المسيحيين والمسيحيين الأوروبيين، أو تؤيد الطبيعة البرجوازية للعرب المسيحيين، أو للقوميين العرب". ويرى سي إرنست دون أن هذه الأطروحة طرحت قبل سنة 1914، وردّ عليها محمد كرد علي، ثم عاد وردّ عليها أنيس النصولي عندما نشر كتابه سنة 1926. ويضيف سي إرنست دون: "إن الأدلة المتوفرة حالياً توضّح أن العرب المسلمين والأتراك هم الذين أخذوا الريادة في ذلك (نشر الحس القومي)... وأن رفاعة رافع الطهطاوي من العرب كان هو الأكثر نفوذاً"، ويحاول سي إرنست دون أن يقدم بعض الأدلة الإضافية هنا، ومن ذلك:

1 – أن القوميين العرب من المسيحيين كانت نسبتهم إلى مجموع القوميين العرب في سورية قبل سنة 1914 ستة بالمئة فحسب،

2 – أن نسبة الذين تعلموا في مدارس الحكومة العثمانية من القوميين العرب قبل 1914 كانت 63 بالمئة، ونسبة الذين تعلموا في المدارس التقليدية 20 بالمئة، ونسبة الذين تعلموا في المدارس الغربية لا تتجاوز 17 بالمئة من القوميين العرب،

3 – أن كثيراً من العرب المسيحيين، منهم معظم من كان يُطلق عليهم عامة لقب "خالقي القومية العربية العلمانية"، شاركوا في رد فعلهم على الغرب الذي بلغ ذروته في حداثة محمد عبدة الإسلامية، إذ كانت كتاباتهم ومواقفهم بعيدة عن مشاعر القربى للغرب، كما أنهم شاركوا العرب المسلمين في الفكرة الذاتية المجروحة عن النفس،

4 – أن بعض كبار مثقفي العرب المسيحيين كالبستاني، والشدياق وأديب إسحق، حذروا من تشويهات الغرب ورذائله، وانتقدوا الإفراط في التفرنج، وأن بعضهم لم يكونوا قوميين عرباً، بل وطنيين عثمانيين."

ويضيف ناجي علوش أن الهدف من هذه التهمة، والتي رددها كثيرٌ من القوميين من دون وعي، هو:

1 – محاولة ربط الحركة القومية بالغرب، وبالتالي بمشروع التغريب،

2 – محاولة الفصل بين الحركة القومية وهوية الشعب وتراثه،

3 - محاولة خلق هوّة بين الحركة القومية والإسلام،

4 – محاولة تعبئة الشعب العربي ضد الحركة القومية.

ولقراءة المقالة كاملة، الرجاء الذهاب إلى الرابط التالي:

http://www.freearabvoice.org/?p=6637

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 95
01 تشرين أول 2024

الصفحة الثقافية: الفيلم الهندي "حياة الماعز"

طالب جميل

فيلم "حياة الماعز– The Goat Life" هو فيلم هندي صدر مؤخراً، ويعرض حالياً على شاشات السينما وبعض المنصات المتخصصة بعرض الأفلام السينمائية، والفيلم باللغة الماليالامية –وهي إحدى اللغات في جنوب الهند-. وهو مقتبس عن رواية أسمها "أيام الماعز" من كتابة الروائي الهندي "بنيامين"، والرواية مأخوذة عن قصة حقيقية عن عامل هندي يدعى "نجيب محمد" حدثت في تسعينيات القرن الماضي.

بطل الفيلم ممثل هندي يدعى "سوكوماران"، وهو الذي أدى شخصية "نجيب محمد"، ويشارك في الفيلم الممثل العُماني "طالب البلوشي" الذي أدى دور "الكفيل" السعودي، كما حل الممثل الأردني "عاكف نجم" كضيف شرف في الفيلم. الفيلم من إخراج المخرج الهندي "بليسي"، وهو الذي أعد السيناريو وأنتج الفيلم، وتدور أحداث الفيلم في (173) دقيقة.

تدور قصة الفيلم حول العامل الهندي المسلم "نجيب محمد" الذي يبيع كل ممتلكاته للحصول على تأشيرة عمل في إحدى الشركات في السعودية، فيغادر هو وصديقه "حكيم" الهند متوجهين إلى السعودية، ويترك خلفه أمه وزوجته الحامل على أمل أن يعود بالمال ليحسن وضعهما. وبعد وصولهما للمطار يقومان بالبحث عن كفيلهما السعودي الذي كان من المفترض أن ينتظرهما في المطار، لكن عدم قدرتهما على التحدث باللغة العربية وبساطتهما جعلهما يقعان ضحية لرجل سعودي لاحظ علامات التيه عليهما فقام باصطحابهما في شاحنة صغيرة إلى الصحراء على اعتبار أنه كفيلهما.

يضع الكفيل الوهمي العامل الأول "حكيم" عند أحد أصدقائه في إحدى مزارع الإبل والغنم، بينما يأخذ العامل الثاني "نجيب" إلى مزرعته التي تشبه مزرعة صديقه، يفاجأ "نجيب" بهذا المكان ويحاول أن يتحدث مع الرجل ليعلمه بأن عمله سيكون في شركة وأنه سيقيم في غرفة مكيفة، لكن الرجل السعودي ينهره ولا يستمع له ويطلب منه أن يعمل في هذه المزرعة النائية في الصحراء وأن يأكل ويشرب مع الإبل والغنم وينام معها أيضاً.

يكتشف "نجيب" أنه اختطف في صحراء معزولة عن العالم، فيحاول الهرب لكنه يفشل، ليبدأ برعي الأغنام والإبل ولا شيء حوله سوى كفيله السعودي القاسي والمتوحش والحيوانات وشمس الصحراء، فيعيش مع الحيوانات ويأكل ويشرب معها ويتعرض للضرب والإهانة من كفيله الذي حرمه من أبسط مقومات الحياة بعد أن قام بتمزيق جواز سفره وأوراقه الثبوتية.

تمر الأيام والأشهر على "نجيب" على هذا الحال، فيصبح هزيل البينة ومنظره مخيف نتيجة البيئة القذرة التي يعيش فيها، وأشبه بمن يعيش في كهف معزول عن العالم. يناجي ربه ويفكر بالنجاة لكن لا مناص، إلى أن يرى على مقربة من مكان الرعي جثة العامل الهندي العجوز الذي كان يعمل بالمزرعة قبله ملقاة في الصحراء والطيور تنهش بها. عندها تيقن أنه لا بد من الهرب فحاول السير في الصحراء والهروب لكن الكفيل لحقه وأعاده إلى حظيرته وأطلق النار عليه ثم ضربه بقسوة.

ظل "نجيب" على هذا الحال لمدة ثلاث سنوات وأصبح شكله كالإنسان البدائي، إلى أن سمع صوتاً في الصحراء فتتبع مصدره ليجد صديقه "حكيم" الذي لم يكن بحالٍ أفضل من حاله فكان هزيلاً ويبدو كالوحش خاصة أنه تعرض لنفس المعاملة، فيحتضنان بعضهما ويبكيان وهما لا يعرفان كم مر من الوقت وكم عمر المعاناة التي عاشاها فالأيام متشابهة في الألم والصحراء لا يوجد بها غير الليل والنهار.

يخبر "حكيم" صديقه "نجيب" بخطة للهرب، وذلك خلال حفل عرس ابنة أحد البدو بعد أيام، فيكتب "حكيم" الفكرة في رسالة ويتركها لصديقه في الصحراء، حيث يخبره في الرسالة عن زميل له في المزرعة اسمه "إبراهيم قادري"، وهو إفريقي، ويعرف طرق الصحراء، وسيقوم بإرشادهما ليهربوا معاً، ويصف حكيم هذا الرجل قائلا "كأنه أرسل إلينا.. مثلما أرسل الله النبي موسى كي نصل إلى الله".

يتبع "نجيب" وصديقه "حكيم" الرجل الإفريقي المسلم الذي يكثر من الصلاة والدعاء في رحلة الهرب في الصحراء الشاسعة، ويبدأون في المسير بحثاً عن "الطريق"، ويبدأ الصراع مع حر الشمس والجوع والعطش وحيوانات الصحراء. رحلةٌ يتخللها كثير من المعاناة والتعب والألم تستمر لأيام طويلة يموت خلالها "حكيم" من العطش والتعب وتترك جثته بين رمال الصحراء، فيما يحاول الإفريقي استنهاض "نجيب" ليقوى على تكملة المسير بحثاً عن الماء التي استدلوا عليها بعد أن شاهدوا سحلية في مكان قريب.

يرتوي "نجيب" من الماء وينام نوماً عميقاً وعندما يستيقظ لا يجد الرجل الإفريقي الذي اختفى وترك له زجاجة مملوءة بالماء ومغطاة بحبة تمر، فيكمل "نجيب" المسير لوحده بحثاً عن "الطريق"، ويستمر بالسير إلى أن يصل إلى الإسفلت بحالة إعياء

شديدة وقد أوشك على الهلاك، ليلتقطه رجل ويضعه في سيارته ويوصله إلى المدينة، وهناك تصحبه مجموعة من العمال الهنود إلى مكان إقامتهم ويعتنون به حيث ينقذون حياته ثم يتعافى، وتستلمه السلطات هناك حيث يعرض مع مجموعة من العمال الهاربين أمام مجموعة كفلاء للتعرف عليهم، ويُصاب "نجيب" بالذعر عند رؤيته لكفيله الوهمي الذي يخبره أخيراً أنه لو كان على كفالته لأعاده للصحراء، ليدرك بعدها "نجيب" أنه كان مخطوفاً وهذا ليس كفيله، ثم يقضي ثلاثة أشهر في السجن، ويتم ترحيله بعدها إلى الهند.

بشكل عام يبدو المشاهد أمام فيلم من مدرسة السينما الهندية تمت صناعته بشكل جيد، فالعمل مشوّق والقصة مثيرة والتصوير بمستوى عالٍ وهناك لمسات إخراجية واضحة رغم بعض الملاحظات. أما الموسيقى التصويرية فكانت إضافة مهمة وجميلة للفيلم سواء في مشاهد الفلاش باك التي تظهر حياة "نجيب" في الهند، أو الموسيقى الحزينة أثناء رحلته في الصحراء، أو حتى موسيقى الأناشيد الدينية التي ظهرت خلال العمل، وهي للفنان العالمي "آي.آر رحمان".

عموماً يحمل العمل مضامين مختلفة بعيداً عن الشكل العام، فمن زاوية يطرح الفيلم بعض الأفكار الفلسفية العميقة المتعلقة برحلة الإنسان وسعيه في الأرض بحثاً عن النجاة وتقلبه بين الشقاء واليأس والأمل، ومن زاوية أخرى يبدو أنه موجه بشكل واضح ضد نظام "الكفيل" الذي كان مطبقاً بالسعودية وبعض دول الخليج والذي كان يتيح للكفيل استعباد العامل الوافد بشكل أو بآخر وحرمانه من أبسط حقوقه، وهي قضية مهمة تستحق الطرح والنقاش بعد أن تعرض كثير من العمال الوافدين، خاصة الآسيويون منهم، للظلم والحرمان ومورست ضدهم كثير من التجاوزات.

لوحظ في الفيلم أن هناك تعمداً واضحاً لتضخيم حجم الجحيم الذي عاشه "نجيب" في الصحراء أدى إلى ظهور بعض الملاحظات التي غفل المخرج عن طرحها بالشكل الواقعي والمنطقي، فالمزرعة المعزولة الموجودة في وسط الرمال الصحراوية لا تدل على أن هذا المكان صالح للحياة حتى للأغنام والإبل، فالأرض ليست بادية مثلاً بل صحراء قاحلة حيث ظهر واضحاً أن "نجيب" عندما كان يصطحب الحيوانات للرعي لم تكن تجد شيئاً لتأكله أو ترعى به، فالصحراء خاوية ليس بها سوى الرمال والطيور الجارحة والأفاعي. فلا يعقل أن تقام مزرعة لتربية الحيوانات في مثل هذا المكان. أما الملاحظة الأخرى التي تجاوزت حدود الواقع فهي المتعلقة بمشاهد الفلاش باك التي ظهر من خلالها "نجيب" مع زوجته في قريته بالهند بأوضاع رومانسية وحميمية إلى حد ما وسط أماكن خلابة أشبه بالجنان وبمرافقة موسيقى عاطفية يظهر من خلالها الرجل وكأنه يعيش في الجنة. أليس هو نفسه الذي باع كل ما يملك ليسافر إلى "الجحيم"؟

لا بأس أن تكون القصة حقيقية وكل أحداثها حدثت حرفياً كما في الفيلم فهذا وارد جداً، ومقبول أن يتم تحويل هكذا فكرة لفيلم لتسليط الضوء على هذه الفئة من الناس، لكن صنّاع العمل استغلوا ذلك وابتعدوا عن الموضوعية وحاولوا تشويه صورة

العربي بشكل عام. ففي بعض المشاهد تم وصف الرجل السعودي القاسي والفظ "الكفيل" على لسان أبطال الفيلم بـ "العربي" و "البدوي" وهذا أمر عادي جداً لكن أن يتم وصف العربي البدوي بالقسوة والبخل والقذارة فهذه إساءة واضحة. وعندما يلتقي "الكفيل" مع "نجيب" و"حكيم" في المشاهد الأولى من الفيلم يسخر أحدهم منه ويقول: "إن الزيوت العطرية تصنع من عرق العرب وأبوالهم"، بعد أن استاء من رائحته، فيرد الآخر: "العرب الحقيقيون هكذا"، وهي إشارة واضحة إلى النظرة السلبية والعنصرية تجاه العرب وبذلك تحذو السينما الهندية حذو زميلتها سينما هوليوود الأمريكية بهذا الطرح المشترك.

كما تخلل الفيلم بعض العبارات التي لا يمكن أخذها بحسن نية، حيث وصف العامل الهندي "حكيم" الرجل الأفريقي بأنه "كالنبي موسى الذي أرسله الله لإنقاذنا"، وهذه العبارة تفوح منها رائحة المجاملة للصهاينة، حتى أن اختيار اسم "إبراهيم" للإفريقي الذي أرسل لإنقاذهم من جحيم الصحراء لا يمكن أن يكون بالصدفة، ولأن الهنود اشتهروا بالتوابل فكان لا بد أن يوضع قليل من التوابل على الفيلم ليتقبله المشاهد الصهيوني.

لا تخلو الأفلام العالمية، وخصوصاً تلك التي تلقى رواجاً كبيراً، من بعض التوجهات السياسية التي تتخللها أحياناً تلميحات بشكل مباشر أو غير مباشر تحمل إساءة للعرب في بعض الأحيان والمسلمين أيضاً - يبدو أنها وصفة لضمان سرعة تسويق الفيلم-، ومن المؤسف أن هذا الفيلم الذي حاول طرح قضية تمس كثيراً من العمال الوافدين تم استغلالها ضد العرب ودس السم فيها، ففي كل مجتمع يوجد أشرار ومجرمون، لكن ليس كل المجتمع مجرم، وفي كل مجتمع يوجد استغلال وظلم، لكن هذا ليس حال الكل، وطرح قضايا من هذا النوع يحتاج لتجرد ونزاهة كي لا يكون الحكم مطلقاً على مجتمع بأكمله.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 95
01 تشرين أول 2024

قصيدة العدد: السيمفونية الجنوبية الخامسة / نزار قباني

سَمَّيتُكَ الجنوب
يا لابساً عباءةَ الحسين
وشمسَ كربلاء
يا شجرَ الوردِ الذي يحترفُ الفداء
يا ثورةَ الأرضِ التقت بثورةِ السماء
يا جسداً يطلعُ من ترابهِ
قمحٌ وأنبياء
اسمح لنا..
بأن نبوس السيف في يديك
اسمح لنا..
أن نعبد الله الذي يطل
من عينيك
يا أيها المغسول في
دمائه كالوردة الجوريّة
أنت الذي أعطيتنا شهادة الميلاد
ووردة الحرية..

سميّتُك الجنوب
يا قمر الحُزن الذي
يطلعُ ليلاً من عيونِ فاطمة
يا سفنَ الصيدِ التي تحترفُ المقاومة
يا كتب الشعر التي تحترف المقاومة..
يا ضفدع النهر الذي
يقرأ طولَ الليلِ سورةَ
المقاومة

****

يا ركوة القهوة فوق الفحم،
يا أيام عاشوراء
يا شراب ماء الزهر في صيدا
ويا مآذن الله التي تدعو
إلى المقاومة

يا سهرات الزجل الشعبي
يا لعلعة الرصاص في الأعراس
يا زغردة النساء
يا جرائد الحائط
يا فصائل النمل التي...
تهرّب السلاح للمقاومة..

****

سميتك الجنوب
يا من يصلي الفجر في حقل
من الألغام
لا تنتظر من عرب اليوم
سوى الكلام
لا تنتظر منهم سوى رسائل
الغرام
لا تلتفت إلى الوراء يا سيدنا الإمام
فليس في الوراء غير
الجهل والظلام
وليس في الوراء غير
الطين والسخام
وليس في الوراء إلا مدن
الطروح والأقزام
حيث الغني يأكل الفقير
حيث الكبير يأكل الصغير
حيث النظام يأكل
النظام...

****

سميتك الجنوب..
سميتك الشمعَ الذي يضاءُ
في الكنائس
سميتك الحناء في أصابع
العرائس
سميتك الشعرَ البطوليَ
الذي
يحفظه الأطفالُ في المدارس

سميتك الأقلامَ والدفاترَالوردية
سميتك الرصاصَ في أزقةِ "النبطية"
سميتك النشور والقيامة
سميتك الصيفَ الذي تحملهُ
في ريشها الحمامة

****

سميتك الجنوب
سميتك المياه والسنابل
وشتلة التبغ التي تقاتل
ونجمة الغروب
سميتك الفجر الذي ينتظر الولادة
والجسد المشتاق للشهادة
يا آخر المدافعين عن ثرى طروادة
سميتك الثورة، والدهشة والتغيير
سميتك النقي والتقي
والعزيز والقدير
سميتك الكبير أيها
الكبير
سميتك الجنوب

****

سميتك الجنوب
سميتك النوارس البيضاء،
والزوارق
سميتك الأطفالَ يلعبونَ
بالزنابق
سميتك الرجالَ يسهرونَ
حولَ النارِ والبنادق
سميتك القصيدةَ الزرقاء
سميتك البرقَ الذي
بنارهِ تشتعلُ الأشياء
سميتك المسدسَ المخبوءَ
في ضفائرِ النساء
سميتك الموتى الذينَ بعد
أن يشيَّعوا..
يأتون للعشاء

ويستريحون إلى فراشهم
ويطمئنون على أطفالهم
وحين يأتي الفجرُ،
يرجعون للسماء

****

سميتك الجنوب
يا أيها الطالع مثل
العشب من دفاتر الأيام
يا أيها المسافر القديم
فوق الشوك والآلام
يا أيها المضيء كالنجمة
والساطع كالحسام
لولاك مازلنا على عبادة
الأصنام
لولاك كنا نتعاطى علناً
حشيشة الأحلام
اسمح لنا بأن نبوس السيف
في يديك
اسمح لنا أن نجمع الغبار عن نعليك
لو لم تجئ يا سيدي الإمام
كنا أمام القائد العبريّ
مذبوحين كالأغنام

****

يا سيد الأمطار والمواسم
يا ثورة شعبية تحمل في
أحشائها التوائم
سميتك الحب الذي يسكن
الخواتم
سميتك العطر الذي يسكن
البراعم
سميتك السنونو
سميتك الحمائم
يا سيد الأمطار، يا ملحمة الملاحم

****

البحر نصّ أزرق يكتبه عليّ
ومريم تجلس فوق الرمل كل ليلة
تنتظر المهديّ
وتقطف الورد الذي يطلع
من أصابع الضحايا
وزينب تخبّئ السلاح في
قميصها
وتجمع الشظايا وتحمل
السلاح للموتى الذين
يقطنون داخل المرايا..

****

فاطمة تجيء من صور، وفي
ثيابها
رائحة النعناع والليمون
فاطمة تجيئني، وشعرها
يشبه هذا الزمن المجنون
فاطمة تأتي.. وفي عيونها
خيل ورايات، وثائرون
هل الحروب يا ترى..
تعمق السواد في العيون؟

****

سيذكرُ التاريخُ يوماً
قريةً صغيرة
بين قرى الجنوب،
تدعى" معركة"
قد دافعت بصدرها
عن شرفِ الأرض، وعن
كرامة العروبة
وحولها قبائلٌ جبانةٌ
وأمةٌ مفككة

****

من بحر صيدا يبدأ
السؤال
من بحرها
يخرج آل البيت
كلّ ليلة
كأنهم أشجار برتقال
من بحر صور
يطلع الخنجر، والوردة،
والموّال
ويطلع الأبطال

****

سميتك الجنوب..
سميتكَ الأجراسَ
والأعياد
وضحكةَ الشمس على مرايلِ
الأولاد
يا أيها القديسُ،
والشاعرُ والشهيد
يا أيها المسكونُ
بالجديد
يا طلقةَ الرصاص في
جبينِ أهلِ الكهف
ويا نبيَّ العنف
ويا الذي أطلقنا من
أسرنا
ويا الذي حررنا من خوف

****

يا سيدي، يا سيد الأحرار:
لم يبق إلا أنت
في زمن السقوط والدمار

في زمن التراجع الثوري
والتراجع الفكري
واللصوص والتجار
في زمن الفرار..
الكلمات أصبحت، يا سيدي الجنوب
للبيع والإيجار
و المفردات يشتغلن راقصات
في بلاد النفط.. والدولار..
لم يبق إلا أنت..
لم يبقَ إلا أنت..
تسيرُ فوق الشوكِ والزجاج
والإخوة الكرام
نائمون فوقَ البيضِ
كالدجاج
وفي زمانِ الحربِ،
يهربون كالدجاج
يا سيدي الجنوب:
في مدنِ الملحِ التي
يسكنها الطاعونُ والغبار
في مدنِ الموتِ التي
تخافُ أن تزورها الأمطار
لم يبق إلا أنت..
تزرع في حياتنا النخيلَ،
والأعنابَ والأقمار
لم يبقَ إلا أنت.. إلا
أنت.. إلا أنت
فافتح لنا بوابةَ النهار.

ومن جنوب العزة سيطلع مقاومون، يحملون في أكفهم أرواحَهم وعيونُهم نحو القدس، سيَقتلون ويُقتلون، ومن بعدها يبعثون ثانيةً وثالثةً ومرةً مئة، لأن من مثلهم لا يموت، لا يُرثى، ولا يُنسى، بل يولد مع كل فجر، يزهر مع كل أقحوانة، وينبع من بين الصخر، ومن جنوب العزة، سيمّحي ظلام، ستورق الأشجار المروية بدم الشهداء، سيفنى الظالمون، وتفتح بوابة النهار..

*قصيدة السيمفونية الجنوبية الخامسة للشاعر نزار قباني من منشورات ديوان "قصائد مغضوب عليها" عام 1992.

رسوم العدد:

طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــــدد 95

01 تشرين أول 2024

فلسطين

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 95
01 تشرين أول 2024

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي